

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة -

ميدان: لغة وأدب عربي

الفرع: دراسات أدبية

التخصص: أدب جزائري



كلية الآداب و اللغات

قسم: اللغة و الأدب العربي

رقم : L15/364

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي

إعداد الطالب : عبد السلام عبد الباسط

تحت عنوان :

صورة الأنا والآخر في رواية "كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج"

لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة :المسيلة	اسم ولقب الأستاذ :عثمان مقيرش
مشرفا ومقررا	جامعة : المسيلة	اسم ولقب الأستاذ:عمار مهدي
مناقشا	جامعة : المسيلة	اسم ولقب الأستاذ :أمين بوضياف

السنة الجامعية: 2016/ 2017

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

ميدان : لغة وأدب عربي

فرع : أدب عربي

تخصص : أدب جزائري



كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

رقم التسجيل: L15/364

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر أكاديمي

اعداد الطالب : عبد السلام عبد الباسط

تحت عنوان

صورة الأنا والآخر في رواية كتاب الأمير ومسالك
أبواب الحديد لواسيني الأعرج

لجنة المناقشة :

رئيسا

جامعة المسيلة

الأستاذ عثمان مقيرش

مشرفا ومقررا

جامعة المسيلة

الأستاذ مهدي عمار

مناقشا

جامعة المسيلة

الأستاذ أمين بوضياف

السنة الجامعية : 2017/2016

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

في البداية أحمده الله تعالى على فضله الكبير، الذي منحنا القوة والإرادة لانجاز هذا البحث ،وأقدم بخالص تشكراتي وتقديري للأستاذ الفاضل مهدي عمار الذي تفضل مشكورا بالاشراف على هذا العمل ، وشمّلنا برعايته بتوجيهاته القيمة ،فنسأل الله العلي القدير أن يجازيه خير الجزاء ، ولا أنسى أن أعبر عن امتناني الكبير لكل من مد لي يد المساعدة سواء من قريب أو من بعيد ،خاصة من كانت لي سندا وعونا طيلة مدة انجاز العمل، زوجتي الفاضلة أدام الله صحتها وعافيتها ان شاء الله ،والوالدين الكريمين بارك الله في عمريهما اللذان نورا طريقنا بالدعاء الصالح ، والشكر موصول لكل من ساهم حتى في وضع نقطة صغيرة في هذا العمل وشكرا .

مقدمة

عرفت الرواية العربية عدة تحولات وتغيرات في مسارها منذ نشأتها ولغاية اليوم ، وكل مرحلة من المراحل طبعها عدة خصائص فنية وجمالية ، ولعل الشيء الأكيد أن جميع الظروف المحيطة بالكاتب ، سواء سياسية أو ثقافية أو اجتماعية ، ساهمت في تكوين ذاته وكان لها صدى واسعاً ضمن هذه المتون الروائية ، التي لا طالما عبرت عن آمال وآلام الشعوب وحملت انشغالاتهم ويوميّاتهم ، وسعت دوماً لطرح الكثير من القضايا على اختلاف أنواعها ، لأجل البحث عن الحلول للأزمات المختلفة ، إلى فضاء أكثر رحابة واتساعاً، والرواية الجزائرية هي جزء لا يتجزأ من الرواية العربية ، وهي الأخرى عرفت عدة تحولات منذ بداياتها، ويجمع الكثير من أهل الاختصاص على وسمها بالثرية والمتنوعة ، واستطاعت أن تعبر الحدود وتتعدى الداخل، والدليل على ذلك ترجمة الكثير من الأعمال الروائية لأكثر من لغة، والعامل الذي ساعدها كثيراً الأعمال المكتوبة باللغة الفرنسية والتي هي جزائرية الروح، هذه النصوص لامست الإنسان غير العربي وأصبحت قريبة منه جداً، وهذه الرواية الفتية كانت لها آفاق رحبة ومفتوحة على الغير، وبذلك تعدت التوقع على الذات ، وامتلكت طاقات تعبيرية هائلة وهذا ما سمح لها بالتقارب مع أمم وشعوب شتى ، وساهم الكثير من الروائيين الجزائريين في رسم و انتاج أعمال روائية جزائرية أصيلة من أمثال : عبد الحميد بن هدوقة – رشيد بوجدره – أحلام مستغانمي – الطاهر وطار.... وغيرهم كثر، وبما أن مجتمعنا الجزائري يحمل خصوصيات عن باقي المجتمعات، فانه عانى الكثير تحت نير وظلم الاستبداد الغاشم ، هذا ما أدى لخلق هوة وفجوة عميقة وسحيقة ما بين الظالم والمظلوم ، ما بين الحق والباطل، تمخضت عنه علاقة اللا سلم وامتازت بعدم الثبات على شكل من الأشكال، والإنسان الجزائري بانتماءاته العربية والإسلامية كان ينبذ كل أشكال العنف والقسوة والظلم ، انطلاقاً من هذا الأساس تشكلت ثنائية صراع واختلاف في الأفكار والرؤى وفي كل شيء ، واحتدم الصراع والنزاع ما بينهما ،ومن الزاوية الفلسفية يعنون بالصراع ما بين الأنا والآخر، هذا الموضوع الذي لقي اهتماماً كبيراً وواسعاً من قبل الدارسين ، وعلى اختلاف

الاجناس الادبية التي كتبت حول الموضوع ،وكان منطلقهم أن الأنا لا يمكن بأي حال من الأحوال التعرف عليها بمعزل عن الآخر ، لأنه لا يتأتى إلا من خلاله ، والوجود الانساني جبل على هذه الثنائية ، على قطبين دوما مختلفين ، خاصة في عصر يسعى إلى الغاء كل الحدود الجغرافية الفاصلة مابين البشر ، والعمل على احداث تقارب في شتى المجالات ، وتعتبر الرواية من أهم الفنون النثرية التي حملت بين ثناياها الكثير من هذه النماذج والصور ، في اطار يسمى البحث عن الهوية والانتماء ، ولعل أهم الأعمال التي استوقفتنا في هذا النوع، وجسدت حضوره بقوة نجد نجد رواية :كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد للروائي واسيني الأعرج ، الذي حاول قدر الامكان أن يستشرف نوع العلاقة مابين الاثنين - الأنا والآخر - خاصة أن عمله هذا يتمحور حول شخصية تاريخية معروفة بكفاحها ونضالها الطويل والمزير ، وحبها الدائم للوطن هي شخصية الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري، ومن هذا القبيل يمكن أن نطرح جملة من التساؤلات تتبادر الى الذهن، يا ترى مالمقصود بالأنا والآخر؟ وماهي أهم الأشكال والصور المعبرة عنهما في هذه الرواية؟ ومن جسد شخصية الأنا وشخصية الآخر ؟ وبماذا تميز الحوار ما بينهما ؟ هل كان حضاريا أم لا؟ وكيف أسس يا ترى الروائي واسيني الأعرج لهذه المقاربة بين الاسلام والمسيحية ؟ ومابين الشرق والغرب ؟ ، وهل أثر هذا التواصل على فقدان خصوصية الذات والهوية أم لا ؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها ارتأينا أن نقوم بدراسة وفق منهج وصفي تحليلي ، مع الاستعانة ببعض آليات المنهج النفسي الذي يساعد على اكتشاف بعض أسرار ومكونات النفوس ، وطبعا أي دراسة تتطلق من الدقة أولا والتحليل الجيد ،ثم الوصول الى الاحكام المحددة والواضحة ، وهذا ما سعيانا له جاهدين ، وعن الأسباب الموضوعية لاختيار هذا البحث فان طبيعة التخصص أولا فرضت علينا دراسة مدونة روائية جزائرية، وثانيا رغبتى الملحة في تسليط الضوء على جانب خفي وهام من حياة البطل الأمير عبد القادر،بعيدا عن صليل السيوف وصهيل الخيول....وطبيعة الموضوع اقتضت ايجاد خطة

من مقدمة وثلاث فصول، الفصل الأول خصصته لتقديم مفهوم الصورة والأنا والآخر من عدة جوانب ،من منظور فلسفي وفي الفكر العربي....الخ أما الفصل الثاني تطرقت فيه لدراسة شخصية الأنا وشخصية الآخر،أما الفصل الثالث وهو المهم فتم التطرق فيه لمنظور العلاقة ما بين الأنا والآخر وفق عدة علاقات جمعت بينهما ،اضافة الى ملحقين ، الأول خاص بالتعريف بالروائي واسيني الأعرج والثاني كملخص للرواية ، وصولا إلى خاتمة أوجزت فيها بعض النقاط الهامة التي خرجت بها من هذه الدراسة، وعن أهم المصادر المعتمدة نجد نص الرواية الأصلي :كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد للروائي واسيني الأعرج، وكتاب استراتيجيا الكتابة التاريخية لعبد الوهاب بوشليحة، وطبعا واجهتنا عدة صعوبات جمة في سبيل انجاز هذا البحث ،لعل أهمها قلة المصادر والمراجع التي تتكلم عن مفهوم الصورة ، وكذا ندرة الدراسات التي تناولت الرواية من مختلف الزوايا ، اضافة الى عامل الوقت الضيق جدا ، وطبعا لا ننسى الدور الكبير الذي قدمه الأستاذ الدكتور الفاضل مهدي عمار الذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته القيمة ، وله منا جزيل الشكر والامتنان على اشرافه وتوجيهه لنا ، فجزاه الله عنا خير الجزاء ، والشكر موصول لكل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد في سبيل اكمال هذا البحث بنجاح ، والله الموفق لكل خير ، والحمد لله الذي تتم بنعمه الصالحات ، والله الموفق دائما وأبدا.

الفصل الأول

ماهية الصورة ومفهوم الأنا والآخر

أولاً : ماهية الصورة

ثانياً : مفهوم الأنا والآخر

مفهوم الصورة: يرتبط مفهوم الصورة بمفهوم المرآة، التي تعرف بأنها سطح يعكس كلما يقوم به أمامه، فأى شيء يمتلك خاصية السطح العاكس فهو مرآة... وهذا الذي يقوم أمام المرآة يعرف باسم الأصل، وأما الذي تعكسه فهو يعرف بالصورة أو الانعكاس وتدور الصورة مع أصلها وجودا وعدما فإن وجدت كان الأصل موجودا، وإن انعدمت أو غابت كان الأصل منعدما أو غائبا¹، إن هذا التعريف العام للمرآة يحيلنا إلى مفهوم الصورة التي تمثل انعكاسا لأصل سابق لها، انطلاقا من هذه العلاقة بين الصورة وأصلها تأتي أهمية الحديث عن الأنا والآخر وارتباطها بهذا المصطلح "حيث تعمل ذات الآخر مرآة نرى فيها ذاتنا التي تعمل بدورها كمرآة تساعد الآخر على رؤية ذاته² مما ينتج تبادلا للنظرات وتقاطعا فيغدو بذلك الناظر منظورا إليك والمنظور إليه ناظرا في آن معا.

ونفهم من هذه المثلية والتطابق الكلي بين الصورة وأصلها في حين أن الصورة التي يكونها أديب أو بلد ما عن بلد آخر "لا تطابق الواقع الحقيقي، وليست شديدة القرب منه ولكنها ليست مختلفة عنه تمام الاختلاف، إنها رؤية معقولة لشعب عن شعب آخر، تعتمد على عوامل عقلية وأخرى مادية موضوعية و ذاتية³ فبالرغم مما تسعى إليه الصورة من أمانة ودقة وصفاء إلا أن تمثيلها للواقع ومطابقتها له مطابقة كلية أمر لا يمكن حدوثه وهناك مقولة تؤكد هذا الطرح من خلال "أن الصورة غير ثابتة فالشخص يتغير دائما، يتغير في شكله كما يتغير في باطنه، يتغير في شكله لأنه يتطور مع نمط الحياة، فهو يغير ملابسه وطريقته في الحياة اليومية، ويتغير كذلك في باطنه فيتخلّى عن بعض الأفكار ويؤمن بأفكار أخرى جديدة أو قديمة لم يكن يؤمن بها إنه يعيش وينمو ويتطور، فالإنسان غير جامد وعدم الجمود يعني الحركة والتطور أي التغير، وقد يكون التغير سريعا وقد يكون بطيئا⁴ ولكي

¹ - محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 1997، ص 03

² - ميخائيل إبراهيم أسعد، شخصيتي كيف أعرفها؟ دار الآفاق الجديدة، لبنان، ط3، 1987، ص 72

³ - عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986، ص 62

⁴ - المرجع نفسه، ص 09

نفهم الأمر بصورة أوضح وجب علينا أن نتساءل: في أي مجال أدبي يمكن أن ينتمي هذا النوع من الدراسات

يعتبر علم الصورة من أحدث المجالات في الأدب المقارن وأهمّها حيثُ تجمع الدراسات في هذا الميدان على صحّة انتمائها إليه ولم يظهر هذا العلم في الدراسات المقارنة إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين وهذا رغبة في فهم الأنا والآخر، يتحدث محمد غنيمي هلال عن هذا الصنف من الدراسات الأدبية بقوله "هذا أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من ثلاثين عام ولكنّه -مع حداثة نشأته- غني بالبحوث التي تبشّر بأنّه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها رواجاً في المستقبل"¹ وهو خاصية ميزت المدرسة الفرنسية بالدرجة الأولى حيث "ظهر مجال علم الصورة في المدرسة الفرنسية مع (ج.م. كاريه) كما أخذه (م.ف. غويار) وهو أحد أقطاب الأدب المقارن في فرنسا، ودافع عنه في كتابه الأدب المقارن عام 1951، حيث خصّص له جزءاً مهماً من الفصل الأخير أسماه الأجنبي"²

أنواع الصور: تنقسم صور الشعب الى نوعين:

أ) صورة شعب في أدبه :

وهذا النوع "لا يتعدّى إطاره القومي واللغوي، فهو إذن يبحث فتيّات الأديب في طرق موضوعه أو فتيّات الأدباء في تناول الموضوع بالوصف والتحليل مثل صورة الفرنسيين في أدبهم أو صورة المرأة الألمانية لدى أديب ألماني، أو صورة المرأة المصرية في روايات نجيب محفوظ أو في الأدب المصري عموماً"³ وهو النوع الذي تكون فيه الأنا صورة للأنا ذاتها.

¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر، الطبعة الثالثة، ص 419

² - رشيد رايس، صورة الجزائر والجزائري في الكتابات النثرية خلال ق 19، قسم اللغة العربية، جامعة قسنطينة،

2003/2004، ص 12

³ - عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص 61

و" تتطوي هذه الصّور على بعد معرفي مؤثر، يضيف إلى وعي الجماعة بذاتها بل يسهم في تشكيل هذا الوعي، فيصبح التعرّف المصاحب لتأمّل صورة المرأة مقدمة للفعل الخلاق وباعثاً على التغيير نحو الأفضل"¹ ليرى الشعب صورة نفسه فيكتشف ما به من عيوب ويسعى إلى تصحيحها وهنا تتجلى الوظيفة الحيوية للصورة، وعمادها الصّلة بين الأدب والشعب.

(ب) صورة شعب في أدب شعب آخر:

لعله من الضروري وجود نسبة من الاهتمام المشترك بين الشعبين لكي يكون أحدهم صورة في أدبه عن شعب آخر فالأهم "لا تهتم إلا بالشعوب المجاورة لها أو التي تشترك معها في مسألة، أو يكون لها معها مصالح اقتصادية، أو تريد كسب ودّها أو تخشى بأسها"² وبذلك يكون هذا الاهتمام هو الدافع إلى رصد صور علاقات شعوب متأثرة بشعوب أخرى، فالتأثير عامل مؤسس لتشكيل تلك الصّور كيف لا وهو العمود الفقري في الأدب المقارن الذي ينتمي إليه هذا النوع من الدّراسات.

وإذا كان النوع الأول يرتبط أساساً بعامل اللغة ولا يخرج عن دائرة قوميته فإنّ هذا النوع من الموضوعات يتعدّى الإطار اللغوي والمكاني فنجد "صورة فرنسا في بريطانيا العظمى، صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية، صورة إيطاليا في الأدب الفرنسي، صورة الجزائر في الأدب الفرنسي... الخ"³.

والملاحظ أنّ هذا النوع من الدّراسات يتكون من شقين :

ب¹ صورة شعب كما يصوره مؤلف ما من أمة أخرى :

¹- جابر عصفور، المرايا المتجاورة (دراسة في نقد طه حسين)، دار قباء، مصر، دط، 1998، ص 90

²- عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص 68

³- المرجع نفسه، ص 61-62

وتأتي هذه الصورة بعدما يتأثر أديب معيّن من شعب آخر، ونتيجة لتأثره ذاك يرسم صورة للشعب الذي تأثر به في أعماله الأدبية مثل "اسبانيا في أدب همنغواي أو بريطانيا في أدب فوليتير، أو صورة الشرق في أدب فيكتور هوغو، أو إيطاليا في أدب ستاندال"¹ وفي هذه الحالة يكون التركيز على "حياة الكاتب، ومدى صلته بالبلد المقصود، ثم يبيّن كيف استقى معلوماته أو كيف رأى البلد رأي العين وإلى أي حدّ كانت الصورة التي رسمها لذلك البلد صادقة أو كاذبة"²

ب 2 صورة شعب في شكل أدبي معيّن لدى شعب آخر:

وتنتج عن طريق "تأثير شعب في آخر وتركيز أدباء الشعب المتأثر على تصوير الشعب المؤثر في فن أدبي معيّن كالرواية أو القصة القصيرة، أو المسرحية، أو الشعر."³ وتكملة لما سبق سنحاول أن نعرض مختلف الصور المتبادلة التي شكلت لكلّ من الأنا والآخر.

صورة الأنا والآخر :

نبدأ بصورة الأنا لدى الآخر لننتعرف على أهمّ ما ترسّب في مخيلته من صور عنها

1. صورة الأنا لدى الآخر:

قبل عرض صورة الأنا لدى الآخر يجدر بنا أن نشير إلى أنّ مفهومه لمصطلح الآخر هو الأرضية التي انطلق منها في تأسيسه لهذه الصورة، فقد ارتبط من يسمى آخر بمصطلح الغير الذي يدور حول المختلف كما يشير إلى علاقة ذات بذات أخرى، ويتمشى مع فكرة ميشيل فوكو عن موقع الذات الخارجي أو الهامشي، الذي لا سبيل أمامه لبلوغ مراكز السلطة،

¹ - عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ص 68

² - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص 90

³ - المرجع السابق، ص 69

حيث يمثل المركز نقطة الأصل، بمعايير ثابتة وقادرة على التحديد، فتكون واحدة من نتائجه قدرته على تبرير الإقصاء وعزل الآخرين، بسبب الانتماء العرقي أو العقيدي أو الديني الاجتماعي.¹

ولعلها الأسباب نفسها التي قام عليها الفكر الغربي في إقصائه للآخر نتيجة تبنيّه فكرة مفادها أنّ الكل ما عدا الغرب عبيد، حيث قسّم أرسطو العالم إلى إغريق، وبرابرة، أو بعبارة أخرى إلى الأحرار بالطبيعة وعبيد بالطبيعة.

هذا التصنيف الذي يحزّر الذات بينما يجعل من الآخر عبداً بالفطرة أدّى إلى الحطّ من قيمة الآخر وإشعاره بالدونية دون التفريق بين الجنس وآخر فلقد "كان اليونانيون يزدرون الأجانب ولكنهم كانوا يزدرون كل الأجانب بالتساوي وبصرف النظر عن الجنس، إذ كانوا يشعرون بأن الأجانب ينقصهم الاستقلال والحيوية اللذان تقدمهما الثقافة اليونانية، ومن ثم فهم يضعون الصينيين واليابانيين والشرقيين مستوى دون الإنسانية"²

وإذا كان التعصب العرقي اليوناني أساس الصورة التي رسمها الآخر للأنا فإن التعصب الثقافي ساهم هو كذلك في تأكيد التفوق الإغريقي وفضله على الحضارة الغربية الحديثة، مقابل عجز الآخر عن الارتقاء إلى مستوى العلم والفلسفة والسبب في ذلك هو "افتقار العبقريّة لدى شعوب المنطقة أو إلى أوضاع اجتماعية ولعلّ العاملين معاً لهما دورهما بلا شك"³ وفي العصور الوسطى كان قد حكم "الانتشار الإسلامي على الإمبراطورية الرومانية التي أصبحت تهدد الغرب المسيحي بالتقلص والتقصص والبقاء في حدوده الضيقة، وهذا الواقع الجديد يكرس بقوة الشرخ الثقافي بين الغرب والشرق لدرجة أن اللاوعي الأوربي لم

1-جاميل سارة، قاموس روتلج النقدي للبنبوية وما بعد البنبوية، ترجمة أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر

2002، ص 256، نقلا عن علاء عبد الهادي، شعرية الهوية، ص 286

2-كافين رايلي، الغرب والعالم، ت عبد الوهاب المسيري وهدى حجازي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1986، ص 101

3-برتراند راسل، حكمة الغرب، ت فؤاد زكريا، ج 01، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون،

الكويت، 1983، ص 22-23

يتحرر في يوم من الأيام، من هذا التحدي الحضاري الذي فرضه العرب على أوروبا في العصر الوسيط¹.

وقبل المواجهة كان من الطبيعي أن تكون هناك "حملة فكرية تحريضية ضد الإسلام وأن يكون لهذا الدين المناوئون الذين يسهون مبادئه ويحملون عليه كي تسهل مهمة الغزو الأوربي للشرق"². وقد تجلت هذه الحملة الفكرية في إلحاق التشويه بالقرآن الكريم، بالإضافة إلى العداء الواسع للرسول صلى الله عليه وسلم "فهذه الصورة في عمومها لا تخرج عن دائرة العداء الذي تغذت به المخيلة الأوربية، والذي ساهم في تأصيل رؤية غريبة عدائية للإسلام والمسلمين، ولا تزال هذه الرؤية قائمة إلى الوقت الحاضر بالرغم مما اتسمت به العلاقات بين الشرق والغرب من إيجابية، ذلك أن الغربيين أنفسهم "اقتبسوا من الحضارة العربية الإسلامية فتعلموا منها وأفادوا مما كان يساعدهم في بناء حضارتهم التي ابتدأت نهضتها منذ قريب من أربعة قرون، فآخذوا مثلاً بالأرقام العربية... وكاستفادتهم من كتب الطب العربي خصوصاً كتب ابن رشد وابن سينا وهلم جر..."³

وكل هذه المبادلات العلمية غابت من الذاكرة الأوربية ولم تبقى إلا "صوراً سلبية ونظرات قديمة للعربي والمسلم، في حين أنه إبان هذا الاحتكار لم يكن الموت أو التدمير هو الذي ميز الصراع بين ضفتي المتوسط بل كان العالم الغربي الذي أعطى وهجا حضاريا للثقافة العربية الإسلامية في ذلك الوقت ومصدرا أساسيا للنخب الأوربية، منه استمدوا مقومات سلطتهم العلمية اللاحقة"⁴، وما هذا إلا محاولة منهم لطمس الجوانب المشرقة في التراث الإسلامي.

¹ -نور الدين أفاية، المتخيل والتواصل (مفارقات العرب والغرب)، المنتخب العربي، لبنان، د.ط، 1993، ص 96-99

² - سالم المعوش، صورة الغرب في الرواية العربية، الرحاب الحديثة، لبنان، د.ط، 1998، ص 74

³ -عبدالمالك مرتاض، الاسلام والقضايا المعاصرة، دار هومة، الجزائر، د.ط، 2003، ص 96

⁴ -نور الدين أفاية، المرجع السابق، ص 101-102

وقد استمرت الصورة نفسها التي رسمها الآخر/الغربي المسيحي للأنا/الشرقي الإسلامي، والتي تجعل منه شخصا دمويا، عنيفا، منحرفا بل كافرا... إلخ. إلى حين مجيء عصر النهضة الأوروبية التي كانت بمثابة صهوة في الفكر الغربي، وبدأت الدراسات تتجه إلى الشرق، مع ذلك فإن تشكيل الصورة كان "يعتمد على ما ترسب في الذاكرة الجمعية الغربية من مقولات وعلى ما صنعه الخيال الشعبي من تطورات شكلت الفضاء لمجمل الأفكار الغربية... فالشرق عند بعضهم موطن الحكمة... وبلاد شهرزاد... شهریار... وسندباد... وشعبه مجموعة من الشعراء... والحكماء... والفلاسفة... وعند آخرين بلاد التخلف... والجمود... والسكون... وشعبه مجموعة من المتعصبين، المحبين للعنف، الكسالى".¹

إنه منطق الرؤية الحضارية الغربية المشوهة، الذي يكشف مظهرًا من مظاهر العقل الغربي في إعادة صياغة الآخر، القائم على فلسفة التمرکز حول الذات والتي تعطي الحق في إلغاء كل ما هو ضدي للغرب .

لقد استعادت الذاكرة الغربية - في نظرتها للآخر - ما قاله العقل الإغريقي. لتنشأ صورة رسخت عبر جهد علمي ومنهجي كبير تمثل في الاستشراق، على أن الهدف من وراء هذه الدراسات هو السعي إلى معرفة الأنا من خلال وعي الآخر فيكون الكشف عن مميزاتها الخاصة، لذلك فالغربي "عندما يدرس الآخر فهو يعيد إنتاج نفسه، عبر إخضاع الآخر لمنهجيات العلوم الإنسانية التي تعتبر المحطة التركيبية العليا والأخيرة لتلك الميثاقية الإنسانية ذاتها التي تقود المشروع الثقافي الغربي"² فالغرب في هذه الفترة بدأ كحضارة تؤسس ذاتها بالخروج عليها والاعتراف بالاختلاف، ذلك أن "الفضول المعرفي الأوروبي في هذه الفترة والرغبة في الإطلاع على اختلافات الآخرين أصبح انشغالا للدولة واهتماما جديا،

¹ - محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، ص 10

² - ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، مطاع الصفيدي وآخرون، مركز الانماء الوطني القومي، لبنان، د. ط، 1990، ص 07

لأن اختلاف الآخر عنصر يعضد ويحمي الهوية سياسيا واجتماعيا وثقافيا من جهة ويفرض على هذه الهوية أن تنتظر جيدا إلى ذاتها من جهة ثانية¹ ولو عدنا إلى طبيعة المحددات التي تشكل الهوية الغربية نجدها تقوم "في تفوقها على غيرها منذ العصر الإغريقي إلى اليوم على التمييز في مكونين : تفوق الشعب (العرق) وتفوق الثقافة (الحضارة) وباندماج هذين المكونين بفعل التاريخ بدأ الوعي الغربي يكشف عن نفسه ليتقدم إلى الآخر متمركزا حول ذاته عرقيا وثقافيا".²

ولم يأت المستشرقون إذن إلا ليلبوا "رغبة دفينة تراكت عبر التاريخ لإظهار صورة محددة للشرق تطابق ما تشكل من صور له في الخيال الغربي" والتي تؤكد صورة التفوق الغربي مقابل صورة التخلف الشرقي على أن المستشرقين لم يستطيعوا التخلص من الصور التي أوجدتها العصور الوسطى عن الإسلام "وهكذا ذهبوا إلى أن الحضارة الغربية لا تدين بفضل تكوينها وماهيتها إلا اليونان والرومان هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الحضارات الأخرى مدينة لها بكل ما هو أصيل وجوهري"³ بما فيها الحضارة الإسلامية العربية وهكذا نجد أن الإستشراق في عمومته قد ألحق أكبر الضرر بالشرق العربي المسلم، ذلك أنه لم يعد مجرد وسيلة ترى فيها الأنا (الغرب) نفسها من خلال الآخر (الشرق) بقدر ما أصبح يمثل مرجعية يرى فيه المستشرق نفسه، وهذا التأثير الكبير الذي خلفته الصورة على الطرفين، بالرغم من أن الاستشراق أصبح يمثل "تركة للماضي القريب أكثر من كونه مشروعا حيا، يأخذ على عاتقه هذه التركة ويطورها"⁴

¹ -نور الدين أفاية ، المتخيل والتواصل ،ص50

² -عبد الله إبراهيم ، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة،المركز الثقافي العربي،المغرب،لبنان،ط1999، 1 ، ص186

³ - المرجع نفسه ، ص 184

⁴ -بن سالم حميش، في معرفة الآخر،دار الحوار ،سوريا ، ط2003،2،ص107

ويبقى القول "إن التقابل الوارد في الاستشراق بين أوربا والإسلام، بين الغرب والعالم الإسلامي. وأحيانا بين المسيحية والإسلام أو بين التقدم والتخلف، ليس تقابلا عفويا، بل هو تقابل مقصود يكشف عن التمايز بين الأنا والآخر إلى حد التنافر والتناقض والتضاد"¹.

وبالتالي ظهرت الأنا في الثقافة الإغريقية بصورة عجز تجعل منها كائنا حيا لا يرتقي إلى مستوى الإنسانية لترسخ صورة الكفر، العنف، العداء... أثناء الحروب الصليبية التي زادت من الهوة بين الأنا والآخر، وسرعان ما أصبح الشرق أرض الأحلام والغرائب، وبظهور الاستشراق كانت صورة التخلف والبدائية طبعت وعي الآخر بالأنا ووعي الأنا بذاتها.

1- صورة الآخر لدى الأنا :

أول ما نسجله حول هذه الصورة هو الاختلاف في المنطق و"إذا كان الغرب قد أنشأ مفهوم الشرق بعيدا عن معطيات الواقع والتاريخ كما ذكر ذلك ادوارد سعيد فإن الشرق في إنشائه لمفهوم الغرب كان أقل ابتعادا عن إحداثيات الواقع وأقل ابتعادا عن وقائع التاريخ وأكثر موضوعية من شطحات بعض الرحالة الأوروبيين " والدليل على ذلك أنه " إذا كان الغرب قدر أن الشرق ما أراد أن يراه، شرق ألف ليلة وليلة، بصخب الأسواق والتصرفات الصبانية الساذجة والألوان الزاهية الفاتنة، فإنه من جهة حاول أن يقدم نفسه. قوة، حضارة، حداثة... والآخرين رأوا فيه ما أراد هو أن يروه فيه "². وقد تباينت الأحكام على الآخر انطلاقا من الصورة التي رسمت له.

لقد ظهر الغرب بصورة الحداثة والتمدن فهو مصدر الحقيقة والآخر تبع له، ومن ثم وجب اللحاق بالحضارة الغربية، لأن كل ثقافات العالم ما هي إلا نتاج موسع لثقافة الغرب فكانت الدعوة إلى تبني كل ما تنتجه هذه الحضارة والدخول في العصر " وكل ثقافة لا تلحق

¹-بن سالم حميش، في معرفة الآخر، ص 105

²-محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، ص 13

بالعصر تنزوي في أقبية التاريخ، هناك ثقافة عالمية واحدة، ثقافة العلم والتكنولوجيا، ثقافة المدينة والعمران¹

لكن الذي حدث هو أن هذا الانفتاح غير المضبوط قد تحول إلى عملية استلاب وتقليد أعمى ذلك أن هؤلاء بدعوتهم إلى تبني الثقافة الغربية لأنها ثقافة إنسانية، تناسوا أن "الثقافة بطبيعتها خاصة تعبر عن شعب ووطن وتاريخ، والثقافة العالمية وهم من صنع أجهزة الإعلام أو من واقع السيطرة عليها، هي ثقافة المركز وليس ثقافة المحيط، الثقافة الأوربية وليست ثقافة الشعوب في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ومن ثم تنزوي الخصوصية لصالح ثقافة واحدة، هي الثقافة الغربية، ثقافة المركز، وتنشأ ظواهر التغريب في ثقافات المحيط.²

فالحضارة الغربية في أصلها تتنافى وثقافتنا العربية الإسلامية لذلك وجد من "يحذرنا من أسس الحضارة الغربية وأصولها المنحرفة، ويدعونا أن نقصر اقتباسا منها على أحوج الحاجات وفي أضيق الحدود العملية والتقنية، دون النظرية والقيمة الأخلاقية"³، ومع تصاعد الخطاب الاستعماري الأوربي الذي كشف عن نواياه الحقيقية في الاستبداد والاستيلاء على الأرض العربية، وبعد التغلب عليه من طرف الأنا تغيرت صورته بالنسبة إليها التي أكدت أن "أوربا ليست الأقوى بالفطرة وإنما ذلك وهم ترسخ في نفوس المسلمين عن طريق فرض أوربا نفسها على أنها مركز الكون وأنها المرجعية الأساسية لتحديد أهمية كل شيء

وقيمته وإحالة العرب والمسلمين إلى الهامش لا يكتسب قيمة في ذاته إلا إذا انخرط في سياق محاكاة الآخر الغربي والسير على خطاه.⁴

¹ - بن سالم حميش، في معرفة الآخر، ص 08

² - حسن حنفي، هموم الفكر والوطن (الفكر العربي المعاصر)، ج2، دار قباء مصر، د.ط، 1998، ص 459

³ - الزهرة بلحاج، الغرب في فكر هشام شرابي، الفارابي، لبنان، د.ط، 1998، ص 48

⁴ - بن سالم حميش، المرجع السابق، ص 108

إذا كنا قد رأينا أن الاستشراق لم يعد مشروعاً حياً، كما أن "إمكانية ظهور استشراق جديد تظل محدودة للغاية، لأن الباحث الأوربي تراكم عنده تاريخه الخاص وعنصريته الدفينة، وعصره الامبريالي وتفوقه العلمي" فإن الذي بدأ هو ذلك التبادل في الأدوار بين الأنا والآخر تجلى في علم يقف دون تحقيق أهداف الاستشراق اقترحه حسن حنفي وهو ما يسمى بـ(الاستغراب) في كتابه (مقدمة في علم الاستغراب) والذي يهدف بالدرجة الأولى إلى دراسة الآخر.

وتتضح الصورة التي أضحى عليها هذا الآخر بتميز حسن حنفي بين حضارة الأنا الإسلامية وحضارة الآخر الغربية، والخلاف بينهما هو خلاف بين طبيعتين، فحضارة الغرب -كما يقول- "حضارة ذات طبيعة طردية أي نشأت بالطرد المستمر من المركز ورفضاً له، وكتطور صرف، هو تطور صرف دون بناء، ولا توجد ماهية مسبقة له كما هو الحال في الوعي الإسلامي"¹

إذن هو يميز بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية يحاول أن ينفي الفكرة القائلة بأن "الثقافة الغربية ثقافة عالمية وأنها الحضارة الممثلة للحضارات البشرية جميعاً" فهي ليست إلا "فكراً بيئياً محضاً نشأ في ظروف معينة من تاريخ العرب، وهو نفسه صدى لهذه الظروف"²

ولعل هذه الفكرة هي المهمة الأساسية التي ينصرف إليها الاستغراب فهدفه بالدرجة الأولى هو أن يغير صورة الآخر عندما "يفوض أسطورة كون الغرب ممثلاً للإنسانية جمعاء، وأن أوربا مركز الثقل فيه، وأن تاريخ العالم هو تاريخ الغرب، وتاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلسفة الغربية"³، والتحرر من هيمنة الحضارة الغربية، هو السبيل الوحيد لتحقيق الإبداع الذاتي والنهضة الشاملة فطالما أن الغرب قابع في قلب كل منا كمصدر للمعرفة وإطار مرجعي

1- أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر (قراءات نقدية في فكر حسن حنفي)، دار عبد ربه، مصر، ط 1، 1997، ص 166

2- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، المطبعة الفنية، مصر، 1990، ص 37

3- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص 187-188

يحال فطالما أن الغرب قابع في قلب كل منا كمصدر للمعرفة وإطار مرجعي يحال إليه كل شيء للفهم والتقييم سنظل قاصرين، وفي حاجة إلى أوصياء، ولعله الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه الآخر، وهكذا " فمهما تكن زاوية نظرنا، لابد أن يظل وعينا باقتصاد الصورة الاختزالي وبطابعها النسبي وعيا يقظا، وذلك كما يبقى طلبنا للحقيقة متحليا بسمتي التجدد والانفتاح ¹، ومن ثم يغدو الآخر أزمنا الذاتية، فالأولى رؤية الأنا في مرآة نفسها وتصحيح أخطائها وكشف عيوبها لتقويمها، ثم يأتي الوعي بالآخر وتشكيل صور له ومن ثم الحكم عليه انطلاقا منها.

الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي :

1) لغة : جاء في لسان العرب أن كلمة أنا "اسم مكني وهو للمتكم وحده، وإنما بني على الفتح فرقا بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل أما الألف الأخيرة إنما هي لبيان الحركة في الوقف ²، وحياء في منجد اللغة والأدب والعلوم أن أنا" ضمير رفع للمتكم والأناثة قوله أنا ³

أما الآخر فقد ورد في لسان العرب أنه "اسم على أفعل والأنثى أخرى، إلا أن فيه معنى الصفة لأن أفعل من كذا لا يكون إلا في الصفة، وتصغير آخر أو يخر، وقوله تعالى: (فاخران يقومان مقامهما) الآية 107 من سورة المائدة ، فسرهُ الفراء فقال : معناه آخران من غير دينكم من النصارى واليهود، والجمع بالواو والنون، وأخريات وأخر، وحكى بعضهم : أبعد الله الآخر ويقال لا مرحبا بالآخر بالأبعد ⁴، أما في منجد اللغة والأدب والعلوم فقد جاء بمعنى غير جمع آخر وأخريات، ومن الكتابة (أبعد الله الآخر) أي من غاب عنا وليس منا ⁵

¹ - عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعية المستعارة، ص 34

² - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار لسان العرب، لبنان، دط 1988، ص 122، مادة (أنا - أنى)

³ - لويس معلوف، المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق والمكتبة الشرقية، لبنان، ط 1، 1991، ص 19، مادة (أن - أنف)

⁴ - ابن منظور، المرجع السابق، ص 29، مادة (آخر)

⁵ - لويس معلوف، المرجع السابق، ص 05، مادة (آخر - آدم)

اصطلاحاً :

مفهوم الأنا والآخر في الفلسفة :

إن الرجوع إلى الدراسات الأولى التي اهتمت بهذين المصطلحين تحيلنا إلى العصر اليوناني، "فقد شغلت الذات الإنسانية بما فيها من غموض وتنوع عدداً من المفكرين والفلاسفة اليونانيين¹ وحتى حكماء الصين والهند في القرون الأولى كما اهتمت الفلسفة العربية بالأنا فبدت كأنها كمفصل انطولوجي ابستمولوجي معا وهذا التناول لها بين الوجودي والمعرفي الذي يعود إلى طبيعة الفلسفة العربية.

وهذا التناول لهذا المصطلح في الفلسفة العربية يعود إلى " طبيعة الثقافة العربية الإسلامية التي ما انفكت تبحث عن الأنا (EGO) وتتعرف عليها وعلى طبيعتها من خلال وجودها وإدراكها المستمر لكونها حلقة في تطور الذات الإنسانية بوجه عام، بالإضافة إلى رؤاها حول طبيعة النفس كمفهوم مقابل للأنا في الاصطلاح الفلسفي، ومن هنا أصبح مصطلح النفس الأكثر شيوعاً واتساعاً واستخداماً من مصطلح الأنا في الفلسفة العربية"²

وفي العصر الحديث لقيت اهتماماً موسعاً في نطاق الفلسفة بصفة عامة، ففي نظرية المعرفة ترجم مصطلح الذات بالماهية وهي " الخصائص الذاتية لموضوع معين وتقابل الوجود، ومنه التعبير الشائع : الوجود والماهية"³، كما أسهمت الفلسفة الوجودية بنصيب موفور في مناقشة هذا المصطلح انطلاقاً من قناعتها بأن السؤال عن الأنا هو سؤال عن الوجود. ويترتب عن ذلك القول بأن الوجود " هو أولاً وجودي أنا، أنا الذات المتفردة"⁴، أما ديكارت فقد حاول أن يجعل الأنا مجال المعرفة الجوهرية فربط بين الأنا فكراً، والأنا وجوداً ليصل إلى نتيجة " أفكر إذا أنا موجود" أما فيشته فقد ضمها إلى فلسفة العلم "حيث لا معرفة

¹-ميشال فوكو، الانهماك بالذات، ت. جورج أبو صالح، مركز الانتماء العربي، لبنان، دط، 1992، ص32-33

²-المرجع نفسه، ص32-33

³-والاس. د. لابين، برت جردين، مفهوم الذات و أسسه النظرية والتطبيقية، ت. فوزي بهلول، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، دط 1979، ص08

⁴-عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية، مصر، ط1، 1984، ص144، مادة(أنا)

فوق إمكانية العقل أو خارجها معرفيا ووجوديا، وأصبحت الأنا المطلقة عنده مركز نظرية العلم¹

كل المقولات السابقة عكست مفهوم الأنا من منظور معرفي وآخر وجودي، لكن وجودها هذا هو وجود في "عالم ليس إياها، أي أنها موجودة في، وقد ترتب عن هذا الوجود في أن صار من صفاتها الجوهرية أنها محاطة أو في حالة تعين مع الغير فليس ثمة ذات مفردة معطاة وحدها"² ومنه نستنتج أن الآخر يأتي بمعنى "صفة كل هو غير أنا، وفكرة الآخر بمعنى غير الأنا ابستمولوجية ملخصها الإقرار بوجود خارج الذات العارفة، أي كينونات موضوعية"³

أما الآخر (L'AUTRE) عندهيدر فهو مرتبط بالسقوط، فهذا الآخر قد رمي به في هذا العالم، غير أنه لا يملك سوى التسليم به، وهذا السقوط يؤخذ على معنيين أحدهما إيجابي والآخر سلبي : أما كونه إيجابي فلأن " بغيره ما كان يمكن وجودي أن يكتشف لنفسه، ولولاه لظل وجودي في إمكانات الوجود لا نهاية لها، أي أن سقوطي هو الذي حددني وبتحديدي تحقق وجودي العيني"⁴

فهيدر يقصد بالسقوط هنا تواجده في هذا العالم مع الآخر الذي أدى إلى تحقيق كينونته ومعرفتها التي لا تتم بمعزل عن الآخر " فالآخر يدخل عنصرا مقوما في صميم وجود الأنا وماهيتها، والأنا بذلك لا تكون إلا من خلال توقفها على الآخر، واستقلاله عنه في وقت واحد"⁵.

¹-عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي، دار الحوار ،سوريا، ط1، 2005، ص192

²-المرجع نفسه، ص192

³-عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، النهضة المصرية، ط2، 1966، ص 19

⁴-المرجع نفسه، ص13، مادة(آخر)

⁵-محمود رجب، المرأة والفلسفة، حوليات كلية الآداب، الحولية الثانية، جامعة الكويت، د.ط، 1981، ص 07

غير أن ذلك الوجود هو وجود مع الآخر الذي يقلل من فرصها في ممارسة حياتها كما قد يحصر دائرة تميزها الفردي، ومن ثم يفهم السقوط من جانبه السلبي، فإذا كان الآخر ضرورة حتمية فانه في الوقت نفسه يمثل الخطر الذي يهددني، بل " والموت المستور لإمكاناتي " على اعتبار أن شأن حريته أن تحد من درجة حريتي إلا أنه لا مناص من الوجود مع الناس كما يرى جان بول سارتر.¹

مفهوم الأنا والآخر في علم النفس

بعدما قسم سيجموند فرويد الجهاز النفسي إلى ثلاث مناطق هي : الهو، الأنا والأنا الأعلى، جعل الأنا تتوسط بين الهو والأنا الأعلى، لتشكل حلقت اتصال بين العالم الخارجي والحاجات الغريزية، "فالأنا تقوم بتأثير العالم الخارجي إلى الهو وما فيه من نزعات، محاولة أن تضع مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة الذي يسيطر على الهو"² وهذا هو الدور الذي تلعبه. أما إذا أردنا تعريفها فإننا نجدها تمثل ذلك الكيان الذي نعيه مباشرة وهو " الشخصية التي نعرفها في أنفسنا، صاحبة الميول والعواطف، وهي منطقية، متصلة بعالم الواقع اتصالاً مباشراً... ولها نزوع أخلاقي، يحافظ على القيم ويرى التقاليد فالمعرفة عند الأنا إذن ترتبط كلية بالشعور، ولا يمكن فهم اللاشعور إلا بصعوده إلى منطقة اللاشعور بالرغم من ذلك نجد " جهلاً كبيراً للمدى المدرك من الأنا، فقد تبدو بعض الأفعال و الأفكار قريبة للأنا، لكن ليس ثمة خط فاصل بين ما هو مدرك وما هو غير مدرك"³. وعلى العموم فإن الأنا هو " الشخصية الشعورية، إنه القوة السيكولوجية بالإضافة إلى القوة البيولوجية والاجتماعية"⁴.

¹ -جان بول سارتر، الوجود والعدم، ت عبد الرحمن بدوي، دار العودة، لبنان، ط3، ص303

² -سيجموند فرويد، الأنا والهو، ت محمد عثمان نجاتي، دار الشرق، مصر، ط4، 1982، ص41

³ -القومي عبد العزيز، أسس الصحة النفسية، دار القلم، لبنان، ط8، 1970، ص109

⁴ -عباس محمود عوض، علم النفس العام، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط2، 1999، ص493

وهناك من علماء النفس من يفرق بين الأنا والذات، فيونغ يراها مركبين مستقلين بل ويزيد من الهوة بينهما لتصبح المسافة التي تفصلهما "كالمسافة مثل ما بين الشمس والأرض... فالذات يمكن أن تعني ما يماثل تعويضا عن الاصطدام بين الخصائص الشخصية والمألوفات المجتمعية نجده في الاشتباك الواقع بين العالم الداخلي والعالم الخارجي".¹

وهي لا تعبر عن الاختلاف فحسب بل يمكن أن تشير إلى الائتلاف " فالذات تحتضن النفس الواعية والنفس الجماعية، وتشكل بذلك شخصية أوسع. وتلك الشخصية هي نحن".² ومنه نستطيع أن نفهم أن الذات أوسع من الأنا كونها تضم بالإضافة إلى الأنا الفردية أنا أخرى ليكونا كيانا أكبر هي نحن أو الأنا الجمعية. بحث يصبح الآخر جزءا مكملًا للأنا ومرتبطا بها، لذلك قيل : أن نشأة الأنا رهينة بوجود الآخر. ومنه يبقى مفهوم الأنا متعدد المدلول بتعدد استخدام المنظرين وتباين مشاربهم فيرمز له مرة بالأنا وأخرى بالذات، فليس من الغريب إذن عدم وصول بعض النظريات في علم النفس إلى وضع مفهوم محدد لهذا المصطلح وكل ما يتصل به ونقصد به الآخر.

مفهوم الأنا في علم الاجتماع : تعرف الأنا في علم الاجتماع بأنها "فرد واع لهويته المستمرة ولا ارتباطه بالمحيط"³ فإحساس الفرد بأناه لا يتحقق إلا بعد إدراكه لكيونته أولا كيف لا و " جسدي هو مركز التوجه، نقطة الصفر، منه أرى كل ما أستطيع رؤيته... فهو عامل محرك لمجرى الإدراك، ومع توسع أبعاد الأنا يتكون وعيه الاجتماعي نتيجة شبكة العلاقات

¹-دافي ماري مادلين، معرفة الذات، ت نسيم نصر، منشورات عويدات، لبنان، فرنسا، دط، 1983، ص 150

²-يونغ، ك. غ، جدلية الأنا واللاوعي، ت نبيل محسن، دار الحوار، سوريا، دط، 1997، ص 942

³-ميخائيل ابراهيم أسعد، شخصيتي كيف أعرفها؟ ص 70

الاجتماعية التي بدونها لا تستطيع أن تستمر لا أخلاقيا ولا ماديا، مثل ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله : الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع¹

وينمو التماسك الاجتماعي تدريجيا بداية من الأسرة الواحدة وانطلاقا من علاقة الأم بأولادها، ونمط العيش السائد الذي وفرت به طعامهم، حيث تخلق حياة البيت قنوات مشتركة تتعلق بأفراد الأسرة وبعلاقتهم التي يجب على من ينتمون إليها، الإيمان بها ويتعرض المخالف لها لنوع من العقاب، قد يصل إلى النفي²

ونتيجة لهذا التكامل الاجتماعي الذي تحققه الأنا فإن الأمر يفترض وجود حالة أخرى اسمها نحن حيث أننا إذا "استطعنا أن نتصور الأنا قوة من بين القوى التي توجد في مجال سلوكنا فيمكن تصور نحن قوة من بين هذه القوى، تضم الأنا بحيث يصبح جزءا من الكل ولا يقوم كقوة مستقلة"³، فتواجد مجموعة من الناس سوية يلغي تعدد الأنوات الفردية ويختزلها ضمن نطاق واحد وهو نحن أو الأنا الجمعية، ولعلها النقطة التي يلتقي فيها علم الاجتماع بعلم النفس لإقرارهما بنفس الحقيقة. إن العلاقة الاجتماعية بين الأنا والآخر لا ترسي قواعدها إلا عن طريق استيعاب الذات التي "تتحقق ضمنيا من خلال التعامل مع الآخرين ومحاولة فهمهم"⁴ إلا أن التواجد سوية لا يعني التجمع مع أي فرد آخر، وإنما "بمن ترتبط معهم بأهداف ومصالح ومعتقدات ومفاهيم مشتركة في جماعة واحدة توفر له عضويتها إشباع تلك الحاجات الاجتماعية، حيث تتضح هذه الحاجة في الرغبة في الحياة مع هذه الجماعة والتوافق معها وتقبل معاييرها وقيمها وأنماطها السلوكية"⁵

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ج1، 01، دار الجيل، لبنان، د.ط، د.ت، ص 30

² - علاء عبد الهادي، شعرية الهوية، (نقض فكرة الأصل، الأنا بوصفها أنا أخرى)، مجلة عالم الفكر، مجموعة 36، الكويت، سبتمبر 2007، ص 292.

³ - مصطفى سويس، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، مصر، د.ط، 1959، ص 139

⁴ - سماح خالد زهران، كيف تفهم نفسك وتفهم الآخر؟ دار الفكر العربي، مصر ط1، 2004، ص 116

⁵ - مريم سليمان، علم نفس التعلم، دار النهضة العربية، لبنان، ط1، 2003، ص 470

ولكي يتحقق الاستقرار الاجتماعي بين الأنا والآخر لابد من تقبل الغير والتقبل من الغير وحب الغير مع تطبيق المبدأ "الذي لا يقبل الانحياز إلى ذاتية الفرد ولا إلى ذاتية الجماعة، وهكذا نخلص إلى أن الآخر إذا كان ضرورة حتمية تفرض وجودها على الأنا فإن الأمر يقتضي الشعورية والتفاعل معه واستيعابه"¹

مفهوم الأنا والآخر في الفكر العربي :

يجمع الدارسون على أن دائرة الأنا والآخر جد متسعة، وهذا راجع لغموض دلالتها، فالأنا قد تعني "بلاد(الشرق) أو (الإسلام) أو (العروبة) أو (بلدان العالم الثالث) أو (النامي) أو المتخلف... الخ" فهي دوائر متداخلة يصعب الفصل بينها أو حصرها ضمن مجال محدد، ولا تتم معرفة أنا/آخر من إحدى الإشكاليات التي تمنح القطبية الحادة لأنا ما ولآخر هي أن هذا الذي تطلق عليه الأنا آخر، غير واضح مثلها تماما، ولا توجد في سمة محددة، بل يستحيل تحديده إلا بتشويبه واختزاله"²

وإذا اختزلنا دائرة الأنا فإننا نجدها تصب في الاستخدام الشائع وهو الشرق في مقابل الغرب، فالآخر اعتبر الشرق مفهوما يمثل نقيض الغرب وليس له حدود بل يجوز أن يعني كل العالم، الذي لا يدخل في دائرة الغرب، وداخل امتداده المباشر... لكنه اقتصر على الشرق الأكثر قربا الذي كان ولا زال الغرب يحتك به، وهذا الشرق يضم العالم العربي وإيران وتركيا.³ وإذا أردنا أن نضبط مصطلح "الشرق" فإن التاريخ يعود بنا إلى جذوره الأولى فقد كان مدلول هذا المصطلح يمثل سوريا مصر وبلاد الرافدين، واتسع ليشمل بالإضافة إلى ما سبق الجزيرة

¹-مريم سليمان، علم نفس التعلم، ص470

²-علاء عبد الهادي، شعرية الهوية، ص321

³-محمد نور الدين أفاية، المتخيل والتواصل (مفارقات العرب والغرب)، ص95-96

العربية وفارس وتركيا، ثم امتد في مراحل لاحقة ليشمل الهند والصين واليابان وما يليهما من بلدان آسيا، فلقد جعل الآخر لدى الغرب يأتي في مقابل الإسلام.¹

وهذه التسمية ليست ناتجة من خصائص اجتماعية أو بشرية...أو اقتصادية بل سياسية غربية رأسمالية تستقطب دولا غير عربية، فتسمية الشرق انطلقت من معطيات جغرافية وأريد بها غير ذلك، وقد يكون السبب ذلك "أن الذاكرة الأوروبية لا تريد أن تتخلى عن فكرة كون الوطن العربي، ولاسيما شمال إفريقيا ومصر والشام، كانت في يوم من الأيام جزءا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية".²

وإذا كان إطار الأنا تكتفه هذه الميوعة، فإن الشأن نفسه بالنسبة للآخر، فالغرب نفهم دلالاته من السياق، ويمكن أن يتحدد باعتباره البعد السياسي أو الجغرافي أو الاقتصادي...وهو قد يكون أوروبا أو الدول المتقدمة عموما، أو الآخر المتخلف دينيا أو حضاريا، أو هو كل هذا معا، فالخلط شائع ولم يقع تحديد الحقول الدلالية لهذا المصطلح، وإنما وقع التعامل مع الغرب باعتباره مسلمة لا تثير السؤال، وهو عادة نقيض للعرب ومقابل له.³

وقد أكد ذلك الغربيون أنفسهم على لسان أحد باحثيهم بقوله "لقد اعتبرنا نحن الأوروبيون منذ مدة أن نطلق على مجموعة البلاد التي ننتمي إليها اسم الغرب ولم يعد هذا التعبير يعني وضعاً جغرافياً خالصاً، بقدر ما يعني كيانا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا وفكريا".⁴

¹-محمد عابد الجابري، الغرب والاسلام، مجلة العربي، ع503، الكويت، أكتوبر 2000، ص 908

²-محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، ص03

³-الزهرة بلحاج، الغرب في فكر هشام شرابي، ص 14

⁴-المرجع نفسه، ص04

الفصل الثاني

شخصية الأنا والآخر في الرواية

أولاً: شخصية الأنا - الأمير -

ثانياً: شخصية الآخر - المونسنيور ديبوش -

الشخصية :

هي ذلك العنصر الذي تتمحور حوله كل الوظائف والهواجس والميول، فالشخصية هي مصدر الخير أو الشر في السلوك الدرامي، داخل عمل قصصي أو روائي ما، فهي بهذا المفهوم فعل أو حدث، وهو في الوقت ذاته تتعرض لإفراز هذا الشر أو ذلك الخير وهي بهذا المفهوم وظيفة أو مفهوم¹، فلا يمكن أن نتصور أبدا رواية دون شخصيات، فالشخصيات تتحرك أو تتصارع فيما بينها وهم أناس يتحركون في القصة، ويعملون وينفعون، هؤلاء الأشخاص هم مصدر متعة للقارئ، لأن المرء ميال بطبعه إلى دراسة النفس وتحليلها ومعرفة ما يختلج فيها من أهواء وغرائز، ومشاعر وأفكار ثم إن القارئ قد يجد في أبطال القصة أصدقاء له وأشباها فيرافقهم ويشاطرهم مشاعرهم.²

إن عبقرية الراوي أو القاص تقوم على خلق أشخاص من لحم ودم، يتحركون ويعملون ونجد أمثالا لهم في المجتمع أو من الممكن أن تقع على أمثال لهم، وهو يعتمد في خلقهم على الواقع، ويعطينا صورة فوتوغرافية لهم، وعلى العكس تماما نجد قصصا تبعد كثيرا عن الواقع وتغرق في الخيال عند تصوير شخصياتها وفي هذا يقول أحد الأدباء "إن الكاتب لا ينسخ نماذج من الحياة، ولكن يقتبس منها ما هو بحاجة إليه، يصنع ملامح استدعت انتباهه هنا أو لفتت ذهنه، أثارت خياله هناك، ومن ثم يأخذ في تشكيل شخصية ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل ما يعنيه حقا هو أن يخلق وحدة منسجمة محتملة الوقوع تتفق لأغراضه الخاصة"³

1- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د. ط، 1998،

ص 67

2- علي أبو ملح، في الأدب وفنونه، المطبعة العربية للطباعة والنشر، صيدا لبنان، د. ط، ص 125

3- المرجع نفسه، ص 125

إننا اليوم نعيش في عالم متباين، مختلف باختلاف المذاهب والاتجاهات وطبائع البشر المختلفة من إنسان لآخر ومن شخصية لأخرى، فلقد خرجت شخصية ما بعد القرن العشرين من الحيز الذي فرضته عليها الشخصية التقليدية، حيث كانت هذه الأخيرة تعامل على أساس أنها كائن حي، له وجود وكيان فتوصف وصفا دقيقا حيث تميزت الرواية التقليدية بتميز شخصية معينة تطغى على الرواية.

ومع بداية القرن العشرين بدأ حظ سير الشخصية يتغير، فلم يعد محصورا على دراسة الشخصية في حد ذاتها، بل اتسعت دائرة دراستها إلى تحليلها وفق المنهج الدلالي، غير أن هذا لا يمنع الشخصية من القيام بدورها الفعال المتمثل في الكشف عن خبايا في الإنسان لم يكن له علم بها، فهي لها قدرة كبيرة على تقمص الأدوار المختلفة، وإظهار العيوب المدفونة في الشخصيات¹ والشخصية كما نعلم تنقسم إلى قسمين: شخصية رئيسية والتي تدور معظم أحداث الرواية حولها، والشخصية الثانوية التي تلعب دورا ثانويا في حياة الشخصية الرئيسية، فيا ترى من هي الشخصية الرئيسية في "رواية الأمير"؟ وكيف تجلت هذه الشخصية؟ وما هي أبعادها؟ وهل هناك شخصيات ثانوية ساهمت في إبراز ومدى قوة وعظمة هذا الأمير؟ وعالم الشخصيات مثيرة جدا ومغري، ولا توجد قصة تخلو من الشخصيات، ذلك أن حضورها يكمل بناء الخطاب السردي.²

أ/شخصية الأنا/الأمير : L'EMIR ABDELKADER

الشخصية الرئيسية في رواية الأمير، هي شخصية الأمير عبد القادر، حيث حاول واسيني الأعرج أن يقدم لنا تعريفا أكثر وضوحا عن هذا الرجل الأسطورة ويكشف بعض الحقائق التي زيفها بعض الحاسدين له، فيحاول الكاتب أن ينقل لنا بعض الوقائع والمغامرات التي عاشها مع القوات الفرنسية بطريقة تجعل القارئ يحس وكأنه يعيش تلك

¹ - عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 69

² - محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ط، 1973، ص 566

اللحظات التي عاشها هذا البطل وتبدو لنا شخصية الأمير عبد القادر نادرة لا تشبهها شخصية في ذلك العصر الذي نشأت فيه، وإذا دلت على شيء فإنها تدل على أنها شخصية عبقرية لا مثيل لها على الإطلاق، ولقد صور لنا الكاتب شخصية هذا الرجل، وهي مزيج بين عدة شخصيات، فلقد كان هذا الرجل، القائد، الأديب، الشاعر، والمفكر، لقد كان الإنسان الذي يحس بآلام الآخرين، وعلى هذا الأساس، فإن الشخصية لم تحدد لصفاتها وخصائصها الذاتية بل للأعمال التي تقوم بها ونوعية هذه الأعمال.¹

1_ الأنا القائد :

الأمير عبد القادر الجزائري هذا القائد، الذي اختاره أهله أميراً للمؤمنين وقائداً، عليه أن يجمع كلمة القبائل المشتتة ويوحد قلوبها، ويقودها في حركة جهاد مقدسة لتحرير أرض الجزائر من الفرنسيين، ذلك الرجل النبيل الذي حاول أن يرفض تلك الإمارة ففرضت عليه، يقول الأمير مخاطباً شعبه: "...وقد قبلت ببيعكم وطاعتكم، وكما قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، وإزالة النزاع والخصام من بينهم وتأمين السبل وموضع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا."²

لقد حاول الأمير عبد القادر أن يجمع قومه على قلب رجل واحد فاحتاج إلى أن يحارب الكثير من القبائل، كان بعضها يدين له بالولاء اليوم ويعلن العصيان غداً، يعتبرونه أميرهم وهو منتصر قوي، ويخرجون عليه عندما تصيبه هزيمة، ذلك القائد الذي كان يرى تباشير عصر جديد لا يصلح فيه السيف للتحرر، وقادته ما زالوا يظنون أن النصر يأتي بقصيدة وقلب رجل شجاع.

1- حميد لحداني، بنية النص السردي بمنظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار

البيضاء، المغرب، ط2، 1993، ص 255

² - واسيني الأعرج، كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد (رواية)، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، نوفمبر 2004، ص71

لقد كانت هذه الشخصية متعددة الجوانب، جمعت بين الحق و القيادة العسكرية وتنظيم الجيوش تنظيمًا بارعا، إضافة إلى قوة النفس وشدة الأعصاب التي تستطيع بها التغلب على الصعاب، ولرجاحة عقله وحسن تدبره للأمور، خاض عدة معارك ضد القوات الفرنسية والقبائل المتمردة عليه وانتصر في أغلبها، لقد كان مهابا، كالأسد ترتعب له النفوس، يشكل رعبا دائما لأعدائه، ويحسب له ألف حساب، مجاهدا صنديدا سلاحه محبة الشعب والتفاني في خدمته، همته الصبر ورايته خدمة الوطن والرغبة في الانتصار، ورغم قلة العتاد والأسلحة إلا أن الإرادة هي السلاح الحقيقي لقول الراوي: "...إن الفرنسيين مجهزون بحرب طويلة الأمد سيدها الأسلحة الحديثة والبارود والعربات النقالة التي لا يملك الأمير أي شيء منها"¹ رغم كل هذا كان صبورا لأنه يقلب الأمور على كل الجوانب ويزنها بكل الموازين، كما يقرر الذي يكون فيه متأكدا من أنه صائب.

2. الأنا شخصية كاريزمية :

لقد واجه الأمير عبد القادر خيانات الأقربين، كما أنه نعم بصحبة المخلصين الأوفياء، الذين آمنوا بقضيته وجهده وجعلوه رمزا لهم، فعندما طلبت عائلة ابن علال أحد أقرب القادة إلى الأمير منه أن يتخلى عن الأمير رفض وقال لهم: "...تحملوا ظروف المحنة والدهر وأقدار الله بالصبر وقراءة القرآن واسمعوا نصائحي، يتحمل أن لا أتلقي رسائلكم بدأ من اللحظة لقد صليت على أرواحكم الطيبة، صلاة الغائب فافعلوا الشيء نفسه."²

كان الأمير يتمتع بشخصية كاريزمية تجعل من يعرفونه عن قرب لا يتأخرون في التضحية بالنفس والأهل من أجله، بل أن الرجل الذي أرسله ابن سلطان المغرب لاعتقاله تلنقي عيناه بعين الأمير مصادفة عندما يرفع الأمير رأسه بعد انتهائه من قراءة

¹-الرواية، ص 113

²-الرواية، ص 306

القرآن، فيلقي الرجل بالسيف ويبكي ويشرح للأمير المؤامرة التي حيكّت ضده قائلاً له: "يا أمير المؤمنين، لقد كلفت قتلك وها أنا ذا أفشل في رفع سيفي ولا أدري لماذا، مع أنني كنت لوحدي كما ترى عندما هممت بفعل ذلك رأيت هالة من النور، غمرتني ولم أعد أرى شيء أبداً فقلت هذه علامة من علامات الله..."¹

يقدم لنا الكاتب الرجل في شكل جديد، الإنساني الذي يحب ويكره ويصاب بالفرح والإحباط واليأس، ما أظهر من شجاعة وثبات في المواقف التي تنهل العقول وتبعث على اليأس كانت لا تحيد عن المواقف الإنسانية، التي ورثها عن دينه وتقاليد شعبه في معاملة أعدائه بالرفق والحسن، يجنح للسلم إذا جنح أعداؤه إليه، ولا يعلن الحرب إلا بعد أن يعلنوها حرصاً منه على التمسك بالعهد والوفاء، لمواثيقه التي أعطاها.

لقد كان هذا الرجل على وعي عميق بمشاكل شعبه، الذي كان يحارب الجيش الفرنسي بوسائل بدائية غير قادرة على مواجهة الدبابات والآلات البخارية والمدافع التي بإمكانها أن تزعزع أساسات أشد الأسوار مناعة، لقد كان عبد القادر وفياً مع شعبه ووطنه، وأكثر شعوراً بالمسؤولية، كان يستمع لأنين الناس وأفراحهم وانكساراتهم وإلى اندفاعاته وهو يحتج على والده الذي أعدم بشكل بشع وبدون استشارته قاضي أرزيو² الذي خان البلاد وبالرغم من خيانة هذا الرجل، إلا أنه لم يتمسك في دموعه التي خانت أمام والده وانهمرت متلائة على لحيته السوداء تلك المسدولة على صدره، لأنه كان أستاذه ومرجعه في الفقه قائلاً له: "...خسارة كبيرة ألم يكن هناك حل شرعي أقل سوءاً من الإعدام"³، كان يتمنى لو أنه مازال حياً، رغم أن خيانتة لا تغتفر أمام الله ولا أمام القانون، لقد كان الأمير ذو قلب يتأثر، ويحس بالآلام الآخرين.

¹-الرواية، ص 375

²-الرواية، ص 58

³-الرواية، ص 61

أ3 الأنا ومشروع "دولة الزمالة" :

كان فهم الأمير عبد القادر لمتغيرات العصر يؤكد له ضرورة بناء دولة نظامية تقوم على النظم الحديثة في الإدارة، يكون لها صانعها ومكتتبها وجيشها النظامي، وهذا ما حاوله في أكثر من مدينة مستعينا بخبرات أوربية يقول الأمير : "...نريد أن نستفيد منهم ومن خبرتهم، وأن نبني هذه البلاد على أسس صحيحة وقارة نطمح من هذه الحضارة أن توقظ هذا الشعب النائم على الكذب نظمنا الجيش تنظيمًا محكمًا بعيدًا عن القبالية"¹

لقد كان الفرنسيون يحطمون مشروعاته وهي في بداياتها دائما، ولكن ذلك لم يجعله يتخلى عن فكرته حتى في الفترة الأخيرة من جهاده حيث كان من المستحيل أن يبني دولة في مكان محدد مستقر لأن الجميع أصبحوا يحاربونه (الفرنسيون_القبائل العاصية_سلطان المغرب)، يقول الأمير : "سلطان المغرب خرج عن الإسلام لأنه يناصر أعداء المسيحية فوجب محاربته."²

حتى في الظروف الحالكة لم يتخلى عن حلم الدولة النظامية، وإن كان قد طور الحلم وحوره ليكون مناسبا للظروف الصعبة، ومن هنا جاءت فكرة الزمالة عاصمة مستقلة، والتي كانت آخر ما دافع عنه، وكان الحفاظ على أرواح من فيها أهم دوافعه لتسليم نفسه للفرنسيين، ويضيف الأمير الزمالة مع تباشير 1843، كانت تحتوي على ثلاثمائة وتسع وثلاثين والداوير سبعين ألف نسمة، وأربعمائة حارسا نظامي منقولة من حيث النظام عن معسكري المكون من أربع دوائر متساوية المسافات الفاصلة، المركز تحته إدارته وعائلته ثم الدائرة الأولى من معاوني المبشرين، الدائرة الثانية مكونة دائرة سيدي مبارك

¹-الرواية، ص 238

²-الرواية، ص 355

ومسؤول الخيالة وقنصلا في وهران، الدائرة الثالثة مكونة في معظمها من قبيلة هاشم، أما الدائرة الأخيرة فمكونة من مختلف القبائل المتضررة وقبائل الجنوب المتنقلة.

4. الأنا المفكر والأديب :

إن الأمير بدأ حياته بالعلم ليكون عالما، ولما هبت الثورة التي جعلت منه قائدا، استبدل القلم بالسيف لأنه وجد من العار عليه أن يلتفت للدراسة في الوقت الذي يحتاجه السيف إلى تحرير الوطن، فالأمير عبد القادر لم يكن القائد فحسب، بل كان المفكر الأديب، وبالرغم من الأجواء التي كان يعيشها فهذا لم يمنعه من إهمال موهبته وهي شغفه بالمطالعة التي زودته بالكثير من مختلف العلوم ومعرفة الآداب، لقد كان مطلعا على كل الثقافات، فلقد قرأ لديكارت وروسو وغاليلو وهذا ما نلمسه في قوله "اكتشافي لديكارت قرني لهذه الأرض، وروسو حبيب إلي المجتمع، وهو على حق فيما يتعلق بالجريمة، حزن لغاليلو كان يفترض أن يبقى على رأيه، وأن لا يتراجع أمام القضاء وهو سيد العارفين".¹

لقد كان الأمير لا يبرح مكتب والده لشدة عشقه وولعه بالقراءة بالإضافة إلى اطلاعه على مقدمة ابن خلدون هذا الأخير الذي اعتبره أستاذه .

هاته المقدمة التي جاءت من بلاد المغرب لقول الراوي : "مد عبد القادر يده نحو المقدمة لابن خلدون التي دون على صفحاتها ملاحظاتها الكثيرة جاءت من بلاد المغرب من تاجر وراق".²

¹-الرواية، ص 61

²-الرواية ،ص 64

كما نجد في الرواية: "صلى ثم انزوى وبدأ يورق كتاب المقدمة حيث تركه في المرة الأخيرة في المنتصف تماماً والمؤلفات العسكرية القديمة والخرائط التي جلبها والده من الحج ومصر وبغداد ويسجل ملاحظاته على الهوامش".¹

وكذلك نجد في الرواية قوله: "أني كذلك أشتهي أن أذهب إلى المكتبة للحصول على كتاب لقراءته مثلما تفعلون... لكننا في حرب وقد أحرقت كل وسائلنا التي كنا نعتمدها ولم نترك لنا إلا الرماد القاسي حتى مكتبة تكدامت لم أنقذ منها إلا ما استطعت إخراجها. الكتب أحرقت؟

أحرق القرآن والتوراة في تكدامت، النار كالحقد عمياء، أحرق ابن خلدون وابن عربي وكتاب عن نابليون ترجمه لي ابن التهامي وغيرها من المخطوطات النفسية".²

ونجد كذلك في الرواية مجموعة الكتب التي ذكرت والتي كانت بمثابة النواة التي رافقت الأمير في منفاه" الصورة في علم الكلام للسنوسي، رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه، ومصنفات البخاري، وكتاب الشقاء للإمام عياض".³

ومن أمثلة ذلك "اتكأ بظهره ثم فتح الكتاب الذي لم يغادره الإشارات الإلهية وتوقف قليلاً عند فصل الغريب الذي ملأ قلبه وعيناه".⁴

"رأى في غرفته أبي حيان التوحيدي وهو يحرق بألم شديد كل ما كتب..."⁵

¹-الرواية، ص 85

²-الرواية، ص 289

³-الرواية، ص 225

⁴-الرواية، ص 454

⁵-الرواية، ص 454

وكان الأمير شديد الحرص على تدوين سيرته الذاتية، التي دأب أعداؤه على تزيفها وتحريفها ومنها ما ورد في الرواية، بمعنى كان يضطر كلما دخل عليه وجده يكتب أو يملئ سيرته الذاتية وكذلك قوله "عندما جلس على الكرسي المقابل للأمير، تأمل قليلا السقف والبرودة ووجه الأمير ظل صافيا على الرغم من الصفرة التي علتة ولكن كلامه ظل متزنا وواضحا ونبراته متناسقة وهو يملئ سيرته الذاتية على مصطفى بن التهامي سيرته الخاصة، عندما سأل مونسنير عن جدوى ذلك، وهل هناك جدوى بالنسبة لشخصية معروفة مثلها ولها قيمتها عند الصغير والكبير، الذي لا يعرفك جاهل لزماننا؟ المشكل قد لا يهمني شخصا ولكن أشعر أن ما قاله لي السي مصطفى دقيق وصحيح نكتب حياتنا مثلما عشناها بدون زيادة أو نقصان أفضل من أن يروينا بوسائله التي ليست دائما طيبة."¹

هذا الرجل الذي كان محبا للإطلاع، وبالرغم من الحروب والتنقلات المستمرة من حين إلى حين كل هذا لم يمنعه من الإطلاع على كتاب الإنجيل ومعرفة قصصه، إنه رجل يشغل وقته حتى وهو مسجون بين أربعة جدران حيث قال الأمير للمونسنير "بدأت أقرأ كتابكم الإنجيل وفي فترة إقامتك بجانبني أتمنى أن تسمح لي بمساءلتك من بعض القضايا الغامضة."²

انه يطلع على قصصهم ويتساءل عن أدق تفاصيلها بل انه "يطلب من المونسنير أن يساعده على الحصول على كتب متخصصة في الدين وعلى كاهن معرب يشرح له تفاصيل المسيحية في صفاقها الأول."³

¹-الرواية ، ص 175

²-الرواية ،ص 43

³-الرواية ،ص 44

ب/ الأنا وعلاقته بالآخر:

مونسنير أنطوان ديبوش/ الآخر هو أول قس للجزائر وربطته علاقة صداقة وأخوة مع الأمير عبد القادر الجزائري/الأنا، منذ أن أتته امرأة عارية الصدر تستجد به لينقض زوجها الضابط الفرنسي من سجن الأمير، فيرسل ديبوش إلى الأمير رسالة يطلب فيها تحقيق رجاء هذه الزوجة باسم الإنسانية، فيستجيب له الأمير بأريحية لم يكن القس يتوقعها، بل يعطي القس درساً حقيقياً في الإنسانية عندما يذكره أن الفضائل لا تتجزأ، وعلى من يسعى لتحرير السجناء الفرنسيين والتخفيف عنهم أن يفعل الشيء نفسه مع السجناء الجزائريين في السجون الفرنسية.

لقد اكتسب الأمير عبد القادر احترام العالم كله، وأعطى صورة نموذجية للمسلم الذي يدافع عن وطنه ويعمل من أجل بناء بلاده وتقدمها، كان مسامحاً مع أصحاب الأديان الأخرى ويتحلى بالأخلاق العالية، ويحترم كلمته وعهوده.

لقد كانت شخصية عبد القادر محور اهتمام لجملة من الشخصيات الأخرى، فكانت ذات قدرة على التأثير في الآخرين، كما أنها قابلة للتأثر أيضاً.

لقد كان المونسنير شديد الإعجاب بهذا الرجل بل أنه أحبه حباً شديداً لدرجة أنه جعل هدفه أن يقنع الأمير بالإيمان بالمسيحية ليقدم لدينه مكتسباً كبيراً بهذا الشخص، لقد كان هناك تشابه كبير بين الرجلين في نباهتهما وإخلاصهما للمبادئ العليا، وإيمانهما بالله ذلك الإيمان العميق الذي يجعل المؤمن يعطي من نفسه وماله لأخيه في الإنسانية بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى، لقد كانت سيرة الأمير عبد القادر هي بشكل ما سيرة المونسنير فكلاهما كان يؤثر على نفسه، لاهم له سوى خدمتهم والتضحية بالنفس، يقول الأمير في أحد حواراته

مخاطبا ديبوش: "روحك أنت غالية، ومستعد أن أمنح دمي لإنقاذها امنحني من وقتك قليلا لأتعرّف على دينك وإذا ما اقتنعت به سرت نحوه."¹

وهذا أكبر دليل على تسامح الرجل واحترامه للأديان الأخرى، ولقد ساعدت العلاقة الوثيقة التي جمعت ما بين الأمير والمونسنيور في تصوير كلاهما في مرآة الآخر فقد كان هو والأمير وجهين لعملة واحدة، انتهاء نحو المنافى والعزلة، يقول جون موبى: "لم يستطع مونسنيور أن ينام تلك الليلة، وهو يسترجع التفاصيل التي حكاها الأمير بحماسة وهدوء ورزانة، لم يترك أهواءه تقف بينه وبين الحقيقة التي كان يراها."²

لقد كان الأمير عبد القادر شديد التدين عالما بدينه، كان يرى أن الدين انفتاح على الآخر وليس انغلاقا على الذات، كان يرى أن الإيمان في حد ذاته مكسب للإنسانية في مجموعها، وهذا الدرس تعلمه ديبوش جيدا فجعله يفتح أفق تفكيره إلى مذهب، وجعل الحوار بينهما لا يهدف إلى كسب أحدهما إلى دين الآخر، بقدر ما هو تعميق لفكرة الإيمان والتقارب بين المؤمنين بغض النظر عن التفاصيل التي تخص كل منهما ودينه، يقول ديبوش لخادمه جون: "كنت أريد مسيحيا يخدم رسالة المسيح، وكنت مستعدا أن أرحل بصحبته إلى البابا لتعميده ليصير واحدا منا"³، كما نجده يقول في موضع آخر "...ولكنه كان أقوى من أن يكون رجل دين واحد، لقد كان مسلما في قلب كل المعارك الكبرى لمصلحة الإنسان."⁴

لقد كانت قضية الأمير عبد القادر، قضية المونسنيور ديبوش وحده فسهر الليالي لسنوات طويلة باحثا في تاريخ الحرب وسائلا الأمير عن مساراتها وخفاياها لأجل كتابة المرافعة التي

¹-الرواية، ص 64

²-الرواية، ص 128

³-الرواية، ص 542

⁴-الرواية، ص 542

قدمها للسيد لويس نابليون، فعلا لقد كان هذا الرجل بمثابة النور يبصر به الأمير، لقد دافع عنه باستماتة مثل الذي يدافع عن كتاب مقدس.¹

لقد كان موت ديبوش نقطة الفراق الأبدي بين الرجلين، وكذلك نقطة الفراق الأبدي بينهما وبين الأرض الجزائرية التي عاش لأجلها الأمير عبد القادر هذا الرجل الذي كان يعرف باسم "أبو الليلة، وأبو النهار" عند أصدقائه وأعدائه، لسرعة تحركاته وضربات، فبينما هو يطوف حول الجزائر، يباغت العدو وبملا أيدي جيوشه بالغنائم والذخائر.

إذا أبى ابتلغته الصحراء فغاب عن عيون الطالبين، فعجب العدو من أمره، وارتاع من بطشه، ووثق به الصديق والعدو.

هذا يدل على أن شخصية الأمير، هي شخصية فذة عجيبة في عصره وعصر غيره، عظيم في انتصاراته وانكساراته، عظيم في وطنه محاربا، وعظيم في بقاءه مسالما، عظيما في حربه وسلمه وقيادته وعلمه، فإنه فخر الانتصار على عدوه في ساحة الجهاد، فإنه لن يفوته أن يكون أبا روحانيا لكل ثورة تحريرية هبت بعده، وما ثورة الجزائر إلا بنت ثورته الأولى...²

ج/ شخصية الآخر/ المونسنيور ديبوش : MONSEIGNEUR DUPUCH

يعد مونسنيور أنطوان ديبوش من الشخصيات الرئيسية أو الأساسية في رواية الأمير لواسيني الأعرج، حيث كانت هذه الشخصية عنصر فعالا لتحريك أحداث الرواية.

ديبوش هذا الرجل المعروف "بلحيته السوداء المنسدلة على صدره والتي تكاد تغطي الجانب العلوي من الصليب الذي كان يتدلى بارزا في عنقه، اللباس الفضفاض الأسود الذي كان يرتديه أعطاه سمعة غير حقيقية أما قبضة يده اليمنى التي كانت تنام على ركبته فقد برز

1-الرواية ، ص 14

2-حميد عبد القادر، عبد القادر الجزائري، جريدة النصر، الجزائر ، ع 1955، 2005

على سابقتها خاتم خشن لم يتركه المونسنيور ديبوش حتى مات، بينما اليد اليسرى كانت تحتضن الإنجيل وتقبض عليه بلهفة كبيرة مخافة ضياعه¹، هذا المونسنيور ديبوش كما وصفه لنا الكاتب، انه رجل محب لفعل الخير ولنصرة الحق، حيث ارتبط بالجزائر ودافع عنها باستماتة، ودافع عن رجلها الكبير عبد القادر مثل الذي يدافع عن كتاب مقدس²، يقول ديبوش لجود موبي jean maubet : "عندما ندافع عن قضية نصير مرضى بها..."³

كان يركض بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن هذا البطل الذي احتجز ظلما وزورا، داخل ذلك القصر اللعين، (قصر لامبواز) بباريس هذا الأخير الذي حرمه من وطنه ومن أرضه ومن أهله وناسه، ديبوش ذلك الرجل الذي لطالما دعا الله بأن يطيل حياته حتى يرى الأمير خارج سجنه، متمتعا بحريته التي حرم منها، لقد كان مونسنيور أكثر معرفة بعبد القادر هذا الأخير الذي اعتبره ألمع سجين عرفه القصر، وهو ليس كباقي السجناء، لقد حاول أن ينزع تلك الفكرة الخاطئة عن الأمير من أذهان الكثيرين، وهو يعترف بصدق وبكل طلاقة، لو أن الفرنسيين عرفوا الأمير كما عرفه هو لأنصفوه في أقرب وقت، لذا فهو يرى أنه من واجبه الإنساني أن يفعل شيئا من أجل نصرة هذا الرجل، وهو ليس مجرد رجل، بل رجل طيب يختلف عن كل الرجال.

شخصية مونسنيور ديبوش الذي تولاه الكاتب بالرعاية فصار معادلا للنموذج الإنساني يعرف بعضهم هذا النموذج على أنه "تقديم صورة متكاملة الأبعاد (الجسمية النفسية والاجتماعية) لشخصية أدبية بحيث تتمثل في هذه الشخصية مجموعة من الصفات كانت من قبل مطلقة في عالم التجريد"⁴

¹-الرواية ، ص 19

²-الرواية ، ص 14

³-الرواية ، ص 22

⁴-علي بن تميم، السرد والظاهرة الدرامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص 93

هذه الشخصية لم يكن وجودها صدفة أو عبثاً إنما تتم عن قصدية الكاتب، لأنها الحلقة التي تجمع الفضائين والواسطة الفاعلة في التغيير، فديبوش هذه الشخصية الإنسانية هي من تتولى كتابة الرسائل الخاصة بفك أسر الأمير وإيصالها إلى الغرفة النيابية وهي أيضاً من عملت على تليين جانب الرئيس نابليون حتى تمنح الحرية للأمير عبد القادر ويظهر في قوله: "لا بد أن يكون لويس نابليون بونابرت الذي عرف المنفى يدرك اليوم قسوة الظلم والضرارة التي يشعر بها الإنسان وهو بعيد عن التربة التي بنت فيها".¹

ثم يذكر مرة ثانية في موضع آخر بضرورة الاتصال بنابليون "يجب أن أكتب نابليون ليطلق سراح الأمير وأن أضع الحقيقة بين يديه مجردة من أي كذب أو زيف".²

إن هذا التصريح يوحي عن أخلاقيات هذا القضاء الاستعماري وعن الآخر الأجنبي وما يتسم به من زيف وغش في تغيير الحقائق وطمسها، لكن القس مونسنيور ديبوش استطاع أن يمنح الأمير نظرة تفاؤلية نحو الغد، بتأثيره في هذا القضاء ومنحه توجيهها إيجابياً إلى درجة إعلان الأمير عبد القادر استجابته وتأثره بهذا الأجنبي قائلاً: "روحك أنت غالية علي ومستعد أن أمنح دمي لإنقاذها امنحني قليلاً من وقتك لأتعرف على دينك وإذا اقتنعت به سرت نحوه"³، إن المساعي التي قام بها ديبوش أثمرت بتقارب وتعارف القضاءين بعدما كانا قطبين متنافرين.

¹ -الرواية، ص 26

² -الرواية، ص 51

³ -الرواية، ص 51

وهذا ما يحيلنا حتماً على قول ميخائيل باختين "من الضروري خلق مجاورات جديدة بين الأشياء والأفكار تتجاوز وطبيعتها الفعلية... وعلى أساس هذه المجاورة الجديدة للأشياء يجب أن تتكشف لوحة جديدة للعالم مشبعة بضرورة داخلية حقيقية.¹

ومن الصور الإيجابية واللينة التي نعدّها جانباً من جوانب الإنسانية والإحساس بالآخرين عند المستعمر هي الجنوح وطلب المصالحة، نلاحظ ذلك من خلال رأي الأمير في شخص دو ميشال قائلاً: "وهذا الرجل أقدره بل وأجله وربما كان القلة القليلة سبقت السلم على الحرب.²

هذا الرجل كما وصفته رواية الأمير نتاج فضاء مجاور لفضاء الأمير عبد القادر الذي أدى إلى التأثير به والاستجابة إلى رؤية فعل التغير النفسي في عوامل المكان المحيطة به، من ثم ندرك أن الزاوية التي تسيطر على أي فضاء أميرى هنا وتتحكم فيه إنما هي زاوية رؤية الأمير، وهي زاوية ذات علاقة تجاورية بغيرها، قد خصها الكاتب بتميز واضح، فنجدها تنشأ بشكل مستمر داخل مشاهد النص الروائي الحاملة في تركيبها الدلالات المختلفة لهذه العلاقات الجوارية، التي يذهب بعضها إلى تسميتها بالرؤية الخيالية.

إن مونسنيور ديبوش يحمل ثقافة الآخر التي تمثل الثقافة الاستعمارية لكن لا تعكسها، لأننا نراها من خلال عيشه على أرض الجزائر التي تعلق بها ودافع عن أبنائها، أضف إلى ذلك أن الكاتب يعرض الشخصية الأجنبية في هذا العمل بشكل موضوعي، يحاول أن يقدمها بصورة حيادية حتى لا يقع في مثل ما وقعت فيه الروايات العربية في عهد مضى، من تناول شخصيات غربية تقول هذه الشخصيات نظرتها إلى نظرة الغرب إلينا بشكل رئيسي وليس النظرة الموضوعية التي يلتزمها الغرب اتجاهنا، في حين أن الروايات التي نعتني بها

1-مرشد أحمد، أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية ، ط1، 2003، ص8-9

²-الرواية ، ص 151

الآن تتضمن مقادير مهمة من الموضوعية في معاينة نظرتها إلى العرب، بما في ذلك تعيين نظرتها إلى نظرتة إلينا وخصوصا في سياق توخي الدقة في استثمار الحقائق التاريخية والامتناع عن مخالفة الواقع الموضوعي والابتعاد عن الافتراء عليه أو تحميله مالا يحتمل.¹ إن أهم التجليات التي نريد أن نصل إليها هي علاقة هذا الإنسان الأجنبي الجزائري ورؤيته له، وهنا يمكن أن نتساءل فنقول: ما هو الوعي الذي شكله وجود الإنسان الجزائري(عبد القادر)ضمن الثقافة الغربية؟

إننا نحاول رصد الوعي من منظور أجنيين وأول رؤية تقابلنا هي التي ينقلها جون موبي وهو يقرأ افتتاحية الكتاب الذي سجل فيه مونسنيور ديبوش كل ما يتعلق بالأمير بقوله: "أعود للتو من قصر أمبواز، قضيت أياما عديدة تحت سقف المضياف في حميمة نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر، أعتقد أنني أكثر معرفة من غيري بعبد القادر وأستطيع اليوم أن أشهد بالحق من يكون هذا الرجل..."²

إن هذه المقدمة هي الخلاصة التي توصل إليها ديبوش، والتي توحى بالرؤية الموضوعية لشخص الأمير فقد صرح أنها صورة تشكلت للأمير عن تجربة معاشة، ثم ينفل لنا في موضع آخر رؤية مختلفة للجانب الفرنسي يعبر فيها عن موقف الآخر، الحاقد الذي سلب حق الأمير، فيقول: "الأحقاد أحيانا تعمي البشر، الحل المتبقي بين يدي هو أبدأ في كتابة الرسالة إلى رئيس الجمهورية لويس نابليون بونابرت، رسالة لا شيء فيها إلا ما درأت العين وأملاه القلب."³

1-صلاح صالح،سرد الآخر عبر اللغة السردية ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،المغرب ،ط1، 2003، ص

²-الرواية ، ص 21

³-الرواية ، ص 26

إن شخصية مونسنيور ديبوش تمثل الوساطة التي تحاول أن تقف بموضوعية في تحليل الأسباب الممكنة المحيطة بالأمير، حتى تتمكن من نصرة هذا المظلوم في منفاه، بل إنها تطرح نمطين حياتيين مختلفتين، حياة سلب فيها الآخر حق الحياة والحرية للإنسان المقهور (الأمير عبد القادر)، وأخرى فرض فيها حياة جديدة غير مرغوب عليه، وهو ما نفسر به لجوء الكاتب إلى إسناد رواية حكاية الأمير إلى لسان أجنبي (مونسنيور ديبوش) كي يكسب الحياد وتتكشف الحقيقة فتجلى ما ستر منه، وهنا يجعلنا الكاتب نتأكد أن الرواية ليست مجرد فكرة أكثر مما هي منهج لبناء مشاعر مؤثرة وتجسيدها عن طريق تسلسل ما.¹

عن طريق هذا التسلسل الروائي أو المنهج السردى استطاع الكاتب أن يطبق بشكل بارع مختلف التوجيهات من خلال تناوب الرواة الثلاث، ينقلنا الراوي إلى الغرفة النيابية لطرح ملف (الأمير عبد القادر) وهنا تتضح الرؤية لمعرفة الآخر بشكل موضوعي، لأن القضية كلها تتلخص في قول إحدى الشخصيات (بيلي دولا لوزنير) الذي يعلق على الملف الخاص بالأمير: "هل سنبقى صامتين؟ فرنسا قطعت وعدها وعلينا أن نجد حلاً الأمر يتعلق بشرف الأمة والسلطان هذا الرجل أعطى وعداً مكتوباً وموجوداً ضمن الملف الذي قدمه مونسنيور ديبوش والجنرال دولا مورسير شخصيتان لا يملك تجاوزهما في هذه القضية."²

من هذا التصريح الواضح نستشف أن القضية الأميرية قوبلت بالتماطل والتعنت، وهذا يرسم حدة الفضاء الاستعماري أثناء التعامل مع الإنسان الجزائري، بالرغم مما يشكله المكان المفرد هنا (الغرفة النيابية) من تمثيل الحقيقة الموضوعية، إلا أن المكان فقد سلطته أمام سلطة أكبر وهي سلطة القضاء الاستعماري التي ترفض حق هذا الإنسان في الحياة بحرية وتجده "من

1- عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط1، 1995

2- الرواية، ص 31

العبث والحديث في هذه الغرفة عن المخاطر المحدقة بفرنسا بسبب هذا الرجل ووضعها في الميزان نفسه مع شرق فرنسا.¹

هذا الجدل الذي ينقلنا إليه مونسنير ديبوش داخل الغرفة يتراوح ما بين معترف بفضل الأمير وشجاعته وحكمته التي وصفوها بقولهم "حنكة عسكرية عالية تستحق التقدير"²، وبين آخر ناظم عليه منكر لفضله وتفوقه داخل هذا الفضاء، لقد استطاع الأمير أن يصنع إنسانية مميزة انعكست على نفوس الشخصيات الأجنبية وجعلت متعلقات الفضاء تتغير عند الطرف الأجنبي إلا أنها تبقى حقيقة مدانة أمام هذا الآخر نفسه "يجب ألا ننسى أبداً هذا الرجل الذي تدافع عنه اليوم ذبح أكثر من 300 سجين فرنسي في يوم واحد."³

هذه النظرة الإجرامية لشخص الأمير، إنما هي نظرة تعال وفوقية من قبل الأجنبي الذي يدين فيها غيره بما لا يدين بها نفسه.

إن الفضاء الاستعماري هنا تحكمه العصبية القبلية رغم ادعائهم تمثيل الحضارة، وكون الأمير أجنبي فهو يستحق العقاب في رأيهم مهما كانت الظروف التي أحاطت بحياته، وهنا ينبعث صوت آخر يستدعي الانتباه والنظر إلى الفضاء الذي كان يحتوي الأمير في قول إحدى الشخصيات الأجنبية "من يستطيع اليوم أن ينكر على عبد القادر أنه قاوم من أجل وطنه ودينه ويستحق كل التقدير من جيشنا."⁴

إن هذا الخطاب السردي هنا يبين عن فضاء لفظي بلغ منتهى الموضوعية فملك على الشخصيات نفسها فلم يعد بوسع الشخصيات إنكار ما بوسع المكان الموضوعي من قدرة على اقتلاع حقيقة الأحداث وصدقها، إذ تخترق الحقيقة أسوار المكان معلنة عن انبعاث

¹-الرواية، ص 35

²-الرواية، ص 32

³-الرواية، ص 33

⁴-الرواية، ص 34

فضائها الحر وهنا ينبغي لنا أن "ننظر للمكان بوصفه شبكة من العلاقات والرؤيات ووجهة النظر التي تتضامن مع بعضها لتشييد الفضاء الروائي الذي ستجرى فيه الأحداث".¹

والمقطع التالي يعكس لنا الوعي الأجنبي اتجاه الإنسان العربي الذي أصبح يعادل عندهم الوحشية و اللا إنسانية، وذلك مما نراه في قول المرأة التي حضرت إلى ديبوش تشتكي حال زوجها السجين عند الأمير عبد القادر " فقد وصلنا أن العرب عندما يلقون القبض على ضحيّتهم لا يفكرون في حل آخر إلا قطع الرؤوس".²

فهذه الصورة تعكس مدى فضاغة المغالطة التي يحملها الفكر الغربي عند الإنسان العربي، فأصبح كل من ينتمي إلى هذا الفضاء يحمل دلالاته، فكل عربي قطاع للرؤوس، وكل قطاع للرؤوس عرب، إن هذا المفهوم نشأ عن الانعكاس الذي يحدثه الفضاء في نفسية الشخصيات وما تتركه الشخصية من أثر في المكان كارتباط الإنسان العربي بمسكنه، فكم تغنى الشعراء الجاهليون بأطلالهم أحبّتهم وبكوا فراقهم، ومثل ما يعكس المكان نفسية الفرد فيسهم في فهم الشخصية... وهو حامل لدلالة إنسانية ترتبط بالواقع وتتأثر به.³

ولهذا كان وجود مونسنيور ديبوش حلقة رابطة بين العالمين، كما أن وجوده يؤدي دورا فعالا في التعريف بالحقائق، وأن هذا الإنسان الذي قيل فيه ما قيل من توحش وبدائية ولا حضارية، إنما يتفوق عليهم ويشهد على ذلك ما رآه مونسنيور ديبوش في شخصية الأمير عبد القادر من حلم ينبع من فضاء عربي نقي، ويحمل لمعاني الأنفة والتسامح والتواضع والإنسانية اللامتناهية " عرفت عبد القادر في أيام وعرة وقت كانت للجزائر كلها تحت سطوة سلطانه وقوانينه، ستجده اليوم أكبر وأكثر إدهاشا في نقاشاته، لا يطلب البيئة الكثيرة من

¹ -حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص277

² -الرواية، ص 42

³ -هيام شعبان، السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله، دار الكندي، دم. 2004، ص 285-287

الدنيا ولا يشتكي أبداً ويجد أعذار حتى لخصومه في الميدان ولا يسمح لأحد بأن يمسه
بسوء.¹

في حين كان الأجنبي المستعمر ينافي كل هذه المعاني الإنسانية التي احتواها فضاء الأمير
ليستبدلها قسوة وظلماً واعتداءً، ولا أدل على ذلك من قضية المساجين الذين أحرقتهم بليسيه
داخل غار جبال الظاهرة "قرأ في جريدة الأخبار ليوم 24 جوان 1845 وقائع الجريمة التي
ارتكبها بليسيه في حق سبعمائة وستين ضحية الذين فضلوا أن يسلموا أنفسهم لسيدي العربي
لكن بليسيه رفض وأعطاهم ربع ساعة للخروج، قبل أن يتخذ القرار بحرق كل شيء وخنقتهم
الأدخنة، وعندما فتحت المغارات كانت الجثث ملتصقة بالصخور"² ومن الأشياء التي
ساهمت بتشكيل هذا الفضاء الأجنبي المستعمر، إحساس هذا المعتدي بالتميز وشعوره
المستمر بعقدة التفوق وأنه إنسان حضاري لا يقهر، مما جعله يصرخ "لكننا نملك القوة
الضارية والحضارة والنظام."³

إن الصورة التي رسمها الكاتب لشخصية المختل تخيلنا على معاني القهر والظلم والتملك
وهي دلالات لا تخرج عن فضاء استعماري انتهازي، يحاول أن يتحكم في العالم الخيالي
الروائي، وذلك ما اعتمده الراوي من أسلوب خاص في تقديم شخصياته، جعلها تفصح عن
نفسها وتكشف وعيها بواسطة الطريقة التمثيلية غير المباشرة.

ومن هذا كله نستنتج أن شخصية الأمير عبد القادر هي الشخصية البناءة في هذا الفضاء،
بسبب تسامحها المطلق وإنسانيتها غير المحدودة و انفتاحها على الآخر، فلم تتحكم العصبية
الفكرية ولا الدينية في قرارات الأمير، إذ كان يختار أفضل الأمور حتى وإن انتهت به
الأوضاع إلى الفضاء المعاد، كما كان يترفع عن الدناءة ويحترم كلمته ويعتز بها، فأعطت

¹-الرواية، ص 46

²-الرواية، ص 361-362

³-الرواية، ص 384

هذه التركيبات جميعها لشخصية الأمير الحق في فضاء التفوق على الآخر، لقد كان تأثير الأمير في غيره من الشخصيات واضحا بجلاء، فمعظم الشخصيات التي تنتمي إلى الفضاء المعادي والتي حدث لها لقاء بالأمير في الحرب أو السلم فرض عليها الاحترام و الإعجاب سواء أبت ذلك أو شاءت، وهو ما يوحى بوعي الأمير وتقبله لمختلف التصورات، والدليل على ذلك اتجاهه لقراءة الكتب الأجنبية باختيار المفيد منها لتعرف أكثر على حضارة الإنسان الأجنبي، وبالتالي استطاعت شخصية الأمير أن تثبت لهذا الإنسان أن الحضارة الحقيقية هي الحضارة الإنسانية التي تمنح التفوق الامتياز لطالبيها وهو ما جعله يندد بكل موقف يتجاوز فيه هذه المبادئ قائلا: "حيث يسيل الدم بغير حق تسقط الشرعية".¹

هكذا استطاع الكاتب أن يوضح المفارقة بين فضاء الهوية الذي يتيح شرعية البحث عن طريق تحقيق الحرية والإنسانية، وفضاء الاستعمار الذي ارتبط بالاعتصاب واستلاب حق الإنسان في الحياة، بالرغم مما امتلكه من وعي حضاري وفكر متقدم إلا أنه يبقى أسير فضاء الانغلاق، رغم ذلك نجد أن شخصية الأمير استطاعت أن تحدث تحولا في الفضاء الاستعماري حتى وإن كان هذا التحول محدودا في مواقف معينة لكنه يمكننا من رصد رؤية جديدة لهذا المستعمر.

¹-الرواية، ص 405

الفصل الثالث

الفصل الثالث : منظور العلاقة ما بين الأنا والآخر في الرواية

أولا : رفض فكرة الصراع

ثانيا: قيم التسامح والتعايش

ثالثا: الحوار العقائدي في الرواية

تمهيد:

إن رواية كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد هي موضوع دراستنا، نحاول أن نبحت فيه عن مقارنة حضارية جديدة مع الآخر، وواسيني الأعرج بهذا العمل الروائي يحاول تصوير نموذج عربي عامة وجزائري بصفة خاصة، وهذه التجربة حسب الدارسين مشبعة بروح ليبرالية داعية إلى موقف توفيقي مابين جذورنا التاريخية والتطور الحضاري الحاصل في العالم، وفتح المجال رحبا مع الآخر، وهذا النص الروائي يمثل فترة مهمة في التاريخ الجزائري، وهي فترة المقاومات الشعبية، وروايته هذه شكلت منعطفًا جديدًا في اختبار الواقع الإنساني بين التاريخ ومآسيه وتجاوزت من حيث الرؤية والمضمون، إذا فنحن بحاجة إلى ذهنية حية قادرة على ربط الواقع الحاضر بالموروث النفسي الحسي والاجتماعي من خلال حركة الجدل الانساني¹ وإذا سلمنا بأن نقطة تقاطع الأنا والآخر في الرواية هي الأساس الذي استند إليه الروائي واعتمد عليه في بناء الرواية، فإلى أي مدى استطاع أن يصور لنا هذا الانفتاح على الآخر؟ وكونه انفتاحًا عالميًا وحضاريًا وإنسانيًا، هل ساهم في بناء علاقة جديدة بين التاريخين أم لا ؟

وعلى اعتبار أن المعطيات تختلف بين التاريخين من حيث عدة جوانب سوسيوثقافية وتاريخية، تشير إلى أن التاريخ هو رمز وحيوات مليئة بالحياة والايحاء، فليس مجديًا إعادة تسجيله بهيكله، ولكن باكتشاف القدرات الحية الموحية والمهمة لإنسان الألفية الثالثة لإعادة بناء نفسه بوعي جديد²

¹ -عبدالوهاب بوشليحة، استراتيجية الكتابة التاريخية، رواية كتاب الأمير، مجلة دراسات جزائرية، ع3، مارس 2006

ص123

² -حوار مع الروائي واسيني الأعرج "على الكاتب أن يدخل غمار تجربة شعبه ولا يبقى على الهامش، الموقع : http//

www.elmousshahid.net/modules.php?NAME:SENS_FILE:ARTICLE:SID:174

فالرواية تقدم تاريخ الأمير وسيرته، في قالب عالمي يحاول أن يفتح على الآخر عبر أبعاد مختلفة وفق علاقة الأنا مع الآخر، وكيف ينظر كل من الأنا للآخر والآخر للأنا عبر عدة أشكال وصور نحاول أن نستشفها من هذه الرواية، ومن هذا المنطلق والأساس يمكن التساؤل عن أهم الصور ما بين الأنا والآخر في هذا العمل الروائي؟ وما هي العلاقة الممكنة بينهما؟

وكيف كانت هذه الثنائية في أحداث هذه الرواية؟ وهل قامت على الثبات أم على التغيير باستمرار؟ وكيف حاول الروائي أن يرسم معالم الحوار الحضاري ما بين الأنا والآخر في هذا النص السردي الروائي؟

كل هذه الأسئلة سنزيل الغموض عنها ونحاول تقديم الإجابة عنها من خلال دراسة لصور وأشكال الأنا والآخر ومواطن الحوار ما بينهما في هذه الرواية.

تجليات الأنا والآخر في رواية كتاب الأمير :

رواية الأمير تعد بمثابة متن مفتوح على عدة قراءات، وهو نص قادر على حمل هذه التأويلات، وهو من بين النصوص الفذة المبنية أساسا على الذات والوعي والنص السردى، والأمير عبد القادر يمثل بنية الذات-الأنا- وهو العنصر الأساسي في بنية المتن السردى، وذلك راجع إلى تلك المفاجأة التي وقعت في تاريخ المنطقة، إذ لم يكن يتوقع أن يخرج من تلك البيئة الريفية شخصية بطولية تاريخية مشبعة بالوعي والنضال، محاولة منه لرفع الذل والهوان والعزلة المفروضة على الذات الجزائرية.

ومن الملاحظ على الأمير أنه كان يعيش على فكرتين جوهريتين أحدهما تتمثل في رغبته الجامحة في دحر هذا المستعمر الغازي المحتل لأنه حسب واجب عيني، وكان رغم التطور الهائل الكبير والحضارة الفرنسية في مجال الأسلحة يردد دوما مقولته المشهورة " ...إيماننا وحده ليس قادرا على تدميرهم"¹، والفكرة الثانية همه الكبير الذي كان يرى ضرورة تخليص شعبه من الفكر القبلي والعشائري الذي بقي مهيمنا على الشعب الجزائري، محاولة منه لجعله يواكب مقتضيات العصر وكيفية بناء الدولة الحديثة، وهو أمر لطالما شكل هاجسا للأمير ونجده يقول للمونسنيور ديبوش "إن الحرب التي كنا نخوضها كانت قاسية، وهي حرب كان الوقت سيدها الأول..."²، وهذا الأمر مرده طبعاً لكثير من الخيانات لبعض الأفراد والقبائل.....، ومادام الأمير يحمل في رأسه ومخيلته هاتين الفكرتين فإنه يحتاج الى الكثير من الأدوات والمناهج التي تساعد على تسيير شؤون الأمة، وحدث له هذا الأمر حين فاجأه أمر مبايعته حين أقر بأن "هذه الأرض لم تعد في حاجة لأي أحدلا يعرفون أن الدنيا

1- الرواية، ص 108/114

2 - الرواية، ص 289

تغيرت وأنا على حافة عالم في طريقه إلى الزوال وعالم يطل بخشونة رأسه....¹ وهذا الأمر شكل له هاجسا لأنه كان أميرا بتزكية من طرف شيوخ القبائل وبصفة شرعية، لأن الأمر يتطلب العمل بأمانة مع تنفيذ الوعود والمهام الموكلة اليه، ومن الناحية العسكرية والإستراتيجية فان الأمر يتطلب خططا وحسابات دقيقة لتقدير امكانيات النصر والهزيمة، وهذا محاول الأمير توعية القبائل به، من خلال تأكيده لهم أن فكرة النصر لا ترتبط دوما بالقدر والتواكل فقط وهو يقول "مشكلة قبائل الأشراف أنها ماتزال تظن أن الانتصارات تأتي هكذا بقدرة قادر.....²

ورأى أن الحل الأنسب هو ضرورة صنع وإنتاج أسلحة من أجل الدفاع عن سيادة الدولة لأنه يقول أن الدولة التي لا تنتج سلاحها بيدها ميتة، اضافة الى امتلاك المعرفة والعلم لأنهما حسبه هما عماد القوة والتطور وهو ماجعله يقول عدة مرات مايلي: "كان حلمي أن أجعل من تكدامت مدينة حرب، ولكن دار علم وثقافة كما كانت، والوقت لم يسعفنا والحرب حرمتنا من علمنة المدينة...³، وشكل الغزو الفرنسي للجزائر صدمة نفسية صعبة، حيث وجدت الأمة نفسها ممثلة في الأنا-الأمير-وهو يقيم الوضع ويقول: "تنقلاتي لا تسمح لي بأي شيء في الدنيا إلا نصرة الحق وتحرير هذه الأرض من الاستعمار وطغيان القبائل الجاهلة...⁴، ويضيف أيضا بقوله: "بدأنا نخوض معارك طاحنة ضد القبائل لفرض الاتفاقية...إن تربية شعوب تعودت على الغزو والنهب والتفكير في الحصول على مال جاره ليس هينا...⁵

والملاحظ على قول الأمير أن بداياته كانت صعبة، خاصة في تهذيب النفوس وتخليصها من الطباع السيئة والجاهلة، حيث وقع في مأزق هل يخطط للمعارك؟ أم يفرض على القبائل دفع

¹ - الرواية ،ص 196

² - الرواية ، ص 196

³ - الرواية ، ص 179

⁴ - الرواية ،ص 242

⁵ - الرواية ، ص 101

الاتاوات؟ أم يحاول مستميتاً دحض فكرة نهب الأموال والسرقة وقطع الطرق...، ليؤكد لنا الأمير أن هذا الواقع مكرس من قبل ومنذ عهود ماضية وغابرة، ومن باب أن الريف هو فضاء ميت لا يحتاجه الناس، إلا في أوقات الضيق، وكيفية الحصول على المال بأي وسيلة مهما كانت .

وساهمت النظرة الاستعمارية من طرف الآخر - الاستعمار - اتجاه الأنا-الذات-والمعززة بالقوة والأموال، والتي تجلت بوادرها في القتل والحرق من جهة، وشراء الذمم والترهيب والترغيب من جهة أخرى، من تحريك الأمير وظهرت في سلوكياته ومواقفه المختلفة من رفض وعدم القبول، ونجده في واقعة الاستسلام يحاور مصطفى بن التهامي حول ما يجب فعله بعد إحكام المستعمر الحراسة على الحدود".... وممتلئ القلب بالمرارة، أفهم خيبتك الكبيرة.... آلامك من آلامي... هذا خيار لم أختره.... لقد تعلمنا الشيء الكثير... أقدر حرائقك التي تشتعل في أنا كذلك.. الفرق بيني وبينك أنني سلمت أمري إلى الله، ولم يعد هناك ما يمنع من اللقاء بيني وبين نفسي¹، والشيء اللافت هو أن الأمير طوال مسيرته الكفاحية والنضالية التي فاقت السبعة عشر سنة، والأحداث التي عاشها طوال هذه الفترة من سقوط الزمالة، والمجاعات التي ضربت الأفراد والقبائل، كل هذه الظروف لم تكسر ظهره بل جعلت منه قويا أكثر، واستطاع أن يقف الند للند طيلة طول هذه المدة، والأمير عبد القادر لم يستطع دحض الغزاة من وطنه، لكنه فرض عليهم الاقتناع بالصورة الانسانية العربية المسلمة، واستطاع أن يغير مفهوم الصورة القديمة الكلاسيكية، المغروسة في ذهنيات ووعي الغزاة، ونستشهد من أمثله ماقالته المرأة التي استجدت بالمونسنيور ديبوش لأجل اطلاق سراح زوجها لأنها تعرف حسب ماتقول " أعرف أن العرب عندما يلقون القبض على ضحيتهم لا يفكرون في

¹ - الرواية، ص 520/522

حل آخر إلا قطع الرؤوس وبعثها إلى الخليفة ليأخذوا مقابلها قطعا ذهبية، وأحيانا يكتفون بقطع الأذان بدل الرؤوس للتخفيف من مهمة الإرسالية عندما يكون عدد القتلى كبيرا.¹

لكن عند توسط المونسنيور ديبوش عند الأمير وإطلاق سراح السجناء، تغيرت الصورة تماما كليا في أذهان الغزاة، وتأكدوا أن العرب مسالمون متسامحون وليسوا كما كانوا يظنون

ولعل السمة البارزة هنا هي تلك الرؤى الجديدة التي ظهرت وبرزت، هذه الرؤى لم تخص الأمير لوحده بل تعدت إلى الآخر، حيث عانى الأمير معاناة نضالية حقيقية بعيدا عن كل أشكال الدعم والتأييد، حيث شكل نقص الأسلحة والوسائل من عتاد وتموين من جهة، وظلم وخيانة من الأقارب من جهة أخرى حيث يقول: عن كل أشكال الدعم والتأييد، حيث شكل نقص الأسلحة والوسائل من عتاد وتموين من جهة، وظلم وخيانة من الأقارب من جهة أخرى حيث يقول لديبوش: "أنا كذلك لم أنج من ظلم الأقارب، الذين وضعوني على رأسهم تنكروا لي والذين وضعتهم باعوني...."²، ومن زاوية أخرى اكتشف المستعمر الفرنسي أن من كانوا يرونهم حفاة عراة وسيقضون عليهم وسيسحقونهم بالجيش الجرارة في أيام معدودات قاوموهم لمدة خمسة عشر سنة، وكبدوهم خسائر فادحة في العتاد والأرواح، واستطاعوا أن يكسبوا قلوب الكثير من جنودهم وقادتهم ومفكريهم.

شخصية الأمير لم تختار الحرب بل فرض عليها، وهي شخصية كانت ترى الحرب كارثة إنسانية مرفوضة دينيا وأخلاقيا، حيث كانت تردد أثناء الانتصارات المحققة التي تلت خرق المعاهدات من طرف الآخر "ربحنا الحرب لكنهم أجبرونا على خسران معركة السلم"³

وشخصية الأمير كانت لا ترى مخرجا نحو السعادة الإنسانية إلا بالعلم وبالحفاظ على منتجات الفكر الإنساني حيث نجده يقول: "...يحدث معي أن أبكي على كتاب أكثر من

¹ - الرواية، ص 37

² - الرواية، ص 241

³ - الرواية، ص 147

بكائي على أعزائي الذين أكلتهم الحرب...¹، إذا الظاهر والخفي هو صراع حضاري مابين الأنا والآخر في غفلة عن الوقائع الميدانية العسكرية، وتجدر الإشارة إلى أن ديبوش أشار مايسمى بالموت في الغربة، وهو ربما لا يقصد الغربة الترابية، ولكن أيضا الغربة الروحية والسلوكية، وهو ما أشار إليه عن الأمير حيث قارن ماكابده في مقاومته من محن وغبن من أبناء جلدته، ومن الآخر الغازي وهو يقول: "كنت أقاتل ليس الفرنسيين فقط، ولكنني كنت أقاتل حالة العمى التي كانت تصيب بعض حلفائي فيظنون أنهم ملاك الحقيقة فيكفرون ويقتلون من يشتبهون"²، ونجده في موضع آخر يقول: "فرنسا تنقل مشاكلها الداخلية نحونا، لقد ذهب رجالات السلم وحل محلهم رجالات للحروب الشاملة...."³

والشيء الأكيد والمتفق عليه أن الروائي حاول أن يؤسس لحوار حضاري، تمثل فيه الدعوة إلى الحوار مابين الأنا-الأمير- والآخر-ديبوش- وهو حوار مابين رمزين واحد للإسلام والآخر للمسيحية، وكأنها إقرار لجوهر الأديان السماوية، وحوار إنساني بعيد كل البعد عن أشكال الضيم والعبث بشرف الإنسان، وهذا مانستشفه من خلال دراسة منظور العلاقة مابين الأمير والمونسنيور ديبوش في الأجزاء التالية .

¹ - الرواية ، ص 289

² - الرواية ، ص 128

³ - الرواية ، ص 263

أ/رفض فكرة الصراع :

إن هذه الرواية تحمل في طياتها رؤية عن التقارب الحضاري دون شك، وهذا التقارب يحمل القابلية عن إتفاق البشر لأجل التعايش الكريم في ظل السلم، والراوي هنا يبيث لنا تجربتين دينيتين تخصان الأنا وشخصية الآخر، لتشكل لنا حوارا استراتيجيا مجسدا لنا تحولات واشتباك الذاكرة البشرية في تحولاتها وتجسيدياتها الإنسانية¹، وتتجلى لنا سمات شخصية الأمير عبد القادر المتسامحة والمتعالية عن الأحقاد، فهو "يعذر حتى الذين تسببوا في عذابه الكبير، مسلمين كانوا أم مسيحيين ويعزي كل ذلك إلى الظروف القاسية التي تتسلط فجأة على الأفراد والجماعات"²، ونجده في موضع آخر يعبر عن التماسه الأعذار حتى لخصومه ومن أمثلة ذلك نجد "لا يطلب الشيء الكثير من الدنيا ولا يشتكي أبدا، ويجد الأعذار حتى لخصومه في الميدان ولا يسمح لأحد بأن يمسهم بسوء"³

ومن النماذج التي تدل على سماحة الأمير وهو يعفو عن أحد خدم العقون الذي حاول اغتياله قائلاً: أطلقوا سبيله، لو كان يريد قتلي لفعل منذ أكثر من ساعة حين لم يكن إلا هو وأنا فهو واحد منا إذا يشاء الله يعود لذويه، أعطوه حصانا وساعده على تخطي الحواجز المنصوبة، لا أقتل رجلا حماني من موت كان يحمله بين يديه وفي رأسه⁴

إذا الأمير مدرك تمام الإدراك لما وراء هذه المظاهر، ويمتاز بجرأته ليس لأنه شخصية تاريخية فقط، بل لأنه إنسان بالدرجة الأولى يعاني الأزمات ويكتوي بنار القهر والحرب ويواجه الشر بالخير حاملا معاني الحب والخير للإنسان في هذا العالم

¹ - عبد الوهاب بوشليحة، استراتيجية الكتابة التاريخية، ص 124

² - الرواية، ص 533

³ - الرواية، ص 41

⁴ - الرواية، ص 376

والملاحظ على هذا العمل أن الروائي قدم لنا قراءة جديدة لتاريخ الآخر، وهي صورة الرجل المتسامح المتجاوز لكل أحقاد الحروب وما طبعتها من شرور، ومن زاوية مقابلة نجد الروائي يجسد لنا مشهدا دراميا كاشفا عن الصورة المقيتة التي ارتسمت في ذهن الآخر، عن الإنسان العربي محاولا إعادة بناء وتصحيح لتلك النظرة القاسية، من أجل إذابة الجليد ما بين الأنا والآخر.

فهل يستطيع الروائي أن يقدم لنا نموذجا نستطيع أن نقرأ ونستشف منه هذه المقاربة، التي تسعى ولا زالت تسعى إلى تحسين صورة الأنا-الإنسان العربي- في مخيلة وذهن الآخر- الإنسان الغربي- ؟، ولعل أهم ما استطعنا أن نتحصل عليه هو خطاب المرأة التي حاولت أن تستعطف المونسنيور ديبوش من أجل أن يتوسط لها لإطلاق سراح زوجها وهي تعبر عن مخاوفها: الأخبار تقول يا سيدي أن العرب يقتلون سجناءهم ويبيعون آذانهم ورؤوسهم لمسؤوليهم لكي ينالوا حقوقهم بحسب عدد الرؤوس¹، الروائي هنا حاول أن يستعيد النظرة التي طغت مدة طويلة من الزمن عند الفرنسيين، والتي فحواها أن العرب هم همج وغير متحضرين تماما، بينما الغربيون هم نموذج عن الإنسان المتقدم والمتحضر، ولعل احسن وأروع الصور ماورد في خطاب الأمير الموجه للقس ديبوش بشأن إطلاق سراح زوج المرأة، وكيف كان درسا قاسيا لم يستطع ديبوش أن ينسأ طوال حياته، طبعاً ليس لقسوة رد الأمير، لكن لتلك الرسالة الإنسانية المشفرة التي أجاب بها الأمير عن طلب القس ديبوش، ولعل ما جاء في نص الأمير مايلي:....أعذرني أن أسجل ملاحظاتي لك بوصفك خادما لله، وصديقا للإنسان.. كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح المساجين المسيحيين الذين حبسناهم منذ عودة العرب بعد فسخ معاهدة التافنة، ليسا سجيناً واحداً

¹ - الرواية، ص48

كائنا من يكون، وكان لعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك سجناء المسلمين الذين ينطلقون في سجونكم، أحب لأخيك ماتحب لنفسك¹

إذا هذا النص قدم لنا صورة متغيرة وجديدة اكتشفها الآخر عن الأنا، ورد الأخير ساهم في زعزعة ذلك الحكم القاسي، وقرب بعقلانية المرجعية الدينية في بعدها الإنساني عند الأمير خاصة لما قال له أحب لأخيك ماتحب لنفسك، وهي محطة جديدة لعلاقة جديدة مابينهما.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل يستطيع الآخر تقبل فكرة الأنا بكل ترحاب؟ أم أن الآخر سيعلن حالة استنفار ضد كل ماله علاقة بالعرب والمسلمين؟، ومن زاوية أخرى نجد الأمير الذي حاول أن يفهم المسيحية والمسيحيين، وهو يخاطب مصطفى بن التهامي قائلا:.... كل مابنيناه عن فرنسا وأوربا في جوهره غير صحيح، كنا نظن أنفسنا أننا الوحيدون الذين ينظر الله إلى وجوههم يوم القيامة... العالم يالسي مصطفى تغير وتغير كثيرا ونحن على حافة قرن كل شيء فيه تبدى لنا عن حقيقة²، وكتعليق على ما ذكر نستشف منه أن صورة الآخر تغيرت نوعا ما في صورة الأنا، وهي ليست ثابتة إنما هي متحولة، فالقس ديبوش الذي أفنى شطرا من حياته وهو يدافع عن الأمير في سجن أمبواز، تمثل نظرتة هذه نظرة مجتمع غربي ليس ككل ولكن طائفة منه، ومن ثم وجب القول أنه لا توجد معايير قارة أو ثابتة بالتحديد، ونحن أمام ذات تفكر وتتأمل في قدرة الذات على رؤية الآخر في جانبه الخير والإنساني، فالآخر لا يمكن الحكم عليه بأنه شر مطلق، والأنا لا يمكن الحكم عليه بأنه خير مطلق، وهذه نظرة القصد منها بث روح التعايش في ظل السلام وتجاوز كل الأحقاد (ويصبح من السهل التحدث عن عدوك بتسامح واحترام)³

¹ - الرواية ، ص 148

² - الرواية ، ص 90

³ - الرواية ، ص 90

فيا ترى لماذا حاول الروائي أن يكشف لنا عن هذه الرغبة الجامحة في تجاوز الأحقاد والنظر باستشراف إلى علاقة جديدة، وما الغاية من ذلك؟ ،ونجد من أمثلة ذلك موقف جون موبي والقس ديبوش من الأمير: (تعرف يا عزيزي جون الناس الكبار عندما يصلون إلى درجات عليا من نكران الذات تنتفي تماما أنانيتهم، رأيت كيف كيف كان يحكي عن دو ميشال؟

-طبيعي لم تعد بينهما حرب ،لقد انتهى كل شيء .

-لا يا جون الأحقاد تشتعل أكثر عندما تنتهي الحروب بمنتصر ومنهزم ومع ذلك الأمير يملك القدرة الكبيرة على تأمل كل شيء بتبصر وبعد نظر ¹، فالقس ديبوش يملك قدرة على التحليل والتأمل كذلك، جعلته يدرك حقيقة الأمير وكيف يعالج قضايا الوجود، كما ازدادت رغبته في مواصلة السير واكتشاف حقائق أخرى عن الأمير، ونجد كذلك من الشواهد حادثة الإستسلام، حيث حاول الأمير يبرر أسباب الهزيمة من أجل تجاوز محنته وهو يقول: (أفضل أن أسلم نفسي لعدو حاربتة وانتصرت عليه في الكثير من المعارك وقبلت هزائمه على أن أقدم رأسي لمسلم خائني وقت الشدة) ² ،ومن بين المواضع التي نجد فيها الأمير يتجاوز محنة المنفى وقسوة الظلم: (لأن العقل الإنساني غني بالمحتوى وهو قادر على التأثير أيضا على العملية التاريخية وذلك بتغييره للإنسان...العقل يساعد ولا شك في إبعاد مظاهر القسوة والهمجية من حياة الإنسان وفي إحلال الرقة والنقاوة واللفظ محلها، إنه يمتلك بهذا المعنى قيمة ثقافية كبرى) ³

الخطاب الوارد هنا هو قراءة للأسلوب العدائي للمؤسسة العسكرية أمثال بيجو ودوميشال،

¹-الرواية، ص 553

²-الرواية، ص 407

³-عبد الوهاب بوشليحة، استراتيجيا الكتابة التاريخية، ص 125

وحاول الأمير أن يحل محله خطابا واعيا بضرورة التواصل والترفع عن شرور الحروب، وهي سمة كانت لدى الأمير حتى وهو في أوج صراعاته مع الأعداء، ولعل الشاهد التالي يعزز موقف الأمير، لأنه تميز بالسماحة الراضية لأي شكل من أشكال العنف الخارج عن نطاق الشرعية الدينية والإنسانية في الحرب: (ماذا أقول لأولادهم الذين ينتظرون عودتهم منذ عرفوا أنهم بحوزتنا؟ ماذا أقول للذين رأوا فينا قدوة تتبع اتجاه المساجين. ها قد عدنا للإسلام لا يعرف إلا الحرق والتدمير والقتل، والإبادة والغنيمة، كلما ألصقت هذه الصورة بنا لقد أمضيت كل سنوات الحرب أثبت للآخرين أننا نحارب ولنا مروءة ورجولة، لقد دفعنا أعداءنا لتقليدنا لكن في رمشة سكين ذهب كل شيء مع الريح)¹

الروائي واسيني الأعرج يرى مثل ما كان الأمير أن التاريخ الكولونيالي المتأزم ليس المرجع الوحيد في العلاقة بالآخر، فالأنا تحاول التأسيس الإنساني النبيل لقيم الحياة-الحرية، حق التسامح، الاختلاف- "أمضيت كل سنوات الحرب أثبت للآخرين بأننا نحارب لكن لنا مروءة...."، وربما الصبغة التي طبعت هذا الخطاب تحيلنا إلى القناعة التي كان يؤمن بها الآخر وهي أن الحرب قاسية "وأن الجهاد لا معنى له إذا لم يضمن حدا أدنى من غريزة البقاء ليس للأفراد فقط ولكن للأرض والتراب"²، ومن زاوية أخرى نجد الأمير يتكلم عن معاني الجهاد الحقّة والتي تتماشى مع قيم الحياة والسلم، مثل الحق والعدل وهي معان نبيلة ينشدها البشر أينما وجدوا "الجهاد أن ترفع سيفاً عندما تنغلق في وجهك سبل السلم، ديننا يقول إذا جنحوا للسلم فاجنح له... الجهاد أن يتعلم الإنسان باستمرار أنه جاهل كلما تقدم الزمن ..."³

¹ - الرواية، ص 259

² - الرواية، ص 196

³ - الرواية، ص 15

إذا سعى الأمير لتفكيك تلك الصورة السلبية عن الإسلام، محاولاً إبراز القيم الحقة من الجهاد حسب تعاليم ديننا الإسلامي السمحاء، لكن السؤال الذي يطرح هنا هل هذا الخطاب هو خطاب ديني بحت؟ أم أنه خطاب أزمنة مارة وبدون ترك أثر؟، فواسيني الأعرج يرى أن الأمير لا يدافع عن شخصه، إنما يريد أن يعيد للإسلام ذلك البعد النبيل الذي غاب عنه منذ فترة، وأن الدين حينما نحسن تمثله وتمثيله يصير وسيلة تقارب وتواصل بين الشعوب، كالنبذة الطيبة التي حينما نحسن غرسها ونعتني بها تعطينا ثماراً طيبة وحسنة .

والملاحظ على الروائي أنه سعى إلى خلق جو من التسامح الإنساني في إطار الود والإخاء العالمي، إذ عبر عنها بوجهة نظر الأمير من منطلق تصحيح ما بين الأنا والآخر "مقتل سجين واحد هو جريمة بلا شك" وعبر نقد الآخر أيضاً "ولكن يجب أن توضع بجانبها جرائم أخرى كتلك التي ارتكبتها بليسي بحرقه في جبال الظهرة القبيلة بكاملها ببشرها وغنمها وزرعها، التاريخ إذا لم نره في كليته يا مونسنيور سنكون مصابين بسوء النظر والقصور البصري" ¹

وهناك من نادى بضرورة إعادة النظر في صياغة العلاقة بين الأنا والآخر، والكشف عن الحقائق ليس كما طلبها المنتصر ولا كما اكتسبها المنهزم، وأن نقرأ التاريخ في كليته لأن قراءته دون غسله من خرافات وأساطير ودسائس قد تحوله إلى مبرر للتصادم لا للحوار، وهو ما تحذر منه الرواية وتنبه على مآزقه الكبرى ومخاطره التي لم يسلم منها شرق أو غرب ² إذا لابد من إعادة النظر في نوعية العلاقة ما بين الأنا والآخر، وأن تكون مبنية على مزيد من التفتح وعدم الانغلاق والتفوق على الذات، والتواصل مع الآخر مرهون بهذه الرؤية الجديدة والقراءة النقدية للتاريخ، وليس من باب أن أخفي أخطائي وأظهر أخطاءك لأن هذه القاعدة تحيل حتماً إلى نبش الهفوات والحماقات.... والحوار كما يقال لا فائدة منه بين طرفين

¹ - الرواية، ص 364

² - عمر حفيظ، كتاب الأمير لواسيني الأعرج، أسئلة الكتابة وأقنعة التاريخ، مجلة عمان، العدد 140، شباط، 2007، ص 08

متحاربين، فهما يغتالان الحوار وأن الحقيقة لا وجود لها وهي مصابة بالعماء والتعصب، هي إذا رغبة في جعل الآخر يدرك ويقر بمكانة الأنا، وهذا الاعتراف يقتضي بوجود تكافؤ لدى التقاء الشرق بالغرب أو الأنا بالآخر، والفكرة المركزية التي تتمحور حولها الرواية وهي أن العصور تبدلت ولم يعد الحال نفسه، فمن الواجب فهمه واللاحق بركبه "...ابتداء من اليوم، كل شيء سيتغير لسنا في حاجة إلى هذا البذخ كي نحارب الآخرين، الانتصار على الغزاة صعب، نحتاج إلى أسلحة حقيقية إلى الماء إلى زراعة مغذية، نحتاج إلى تغيير سلوكياتنا اليومية، نفكر كيف نصنع المدافع الأسلحة الخفيفة والسيوف بدل أن نكتفي بالتصليحات وأن نعيد اكتشاف البارود إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وأن نتخلص من البارود القبائلي الذي لا ينفجر وإذا انفجر أحرق صاحبه قبل أن يحرق العدو والمعركة استعداد يومي"¹

هذا الكلام نابع من شخصية فذة متألمة وواعية لما تقول، لأنه يعبر عن حظ أمته عبر منجزات الآخر، لأنه من الصعب بما كان أن تتعرف على نفسك دون وساطة الآخر، وفي هذا العمل الروائي نجد أن الأمير هو الشخصية المحورية في مواجهة الذات الجماعية، وهو يحاول أن يقدم صورة ايجابية عن أمته، إنه يحاول أن ينظم "مجتمعا وقبائل لا ترى أكثر من سلطان رئيس قبيلة ولا حياة لها إلا الغنائم وإلا تأكل رأس من يحكمها"²

وربما المدلول من هذا الكلام أنه أراد أن يمارس حرية فكرية في مواجهة وعي قبلي منغلِق على ذاته، في زمن تغير فيه كل شيء وبسرعة فائقة، ونجد الأمير محاولا استشراق المستقبل فيقول: (هل نملك اليوم القدرة لفتح أعيننا على هذه الحقائق وتعليم أبنائنا من أخطائنا القاتلة..)

والملاحظ أن الأنا تحاول إلى أن تنتظر إلى الواقع في تحوله الدائم، وإلى الآخر في أبعاده الكلية، وصورة الآخر ليست مفردة ولا ثابتة، إنما هي متحولة، فالآخر ليس المؤسسة العسكرية

¹ - الرواية، ص 83

² - الرواية، ص 42

وماتحمله من رغبة في تدمير الذات، بل إن الآخر له حضارة متقدمة بمظاهرها المتنوعة، وهذا راجع إلى أن الذات تنظر وفق تأمل وبصيرة حادة وترفض الواقع والاستسلام له، وأصبح يمقت اليقين الزائف بأنهم أقوىاء و متماسكون متحابون، والواقع يقول أنم كسالى متفرون متأخرون، والأمير يتطلع إلى مستقبل أفضل، وهنا يحدث تقاطع بين الماضي والحاضر، وهو يحاول أن يقارن ما بين عالمه وعالم الآخر، ومن أمثلة ذلك مادار من حوار ما بين الأمير والسي مصطفى وبعض خلفائه في مسجد مطل على جنان الباي، فيقول الأمير: (موقعة وهران تبين لنا نقائصنا وقوتنا ويجب أن لا نتوهم، فيجيبه أحد خلفائه: أمطار الربيع كانت عائقا بيننا وبينهم، يرد الأمير: صحيح ولكن الأمطار كانت علينا وعليهم، القذائف التي أطلقناها في 30 ماي 1883 لم تحدث إلا ثقبا صغيرا في تحصينات أورليان، والبقية تعرفها جيدا، مدافعنا انفجرت في مواقعنا قبل أن تهددهم... كل يوم يؤكد لي أنه عندما كان الناس يعدون للحروب كنا نتغنى بمجد لم يعد له أي وجود)¹

والوعي الذي يريده الأمير هو وعي يفصل ما بين زمنيين، زمن مضى ولم يعد منتجا، وزمن آخر يتشكل لأن الحاضر يحتاج منا أن نعيشه بوعي، وأن نشارك في بناء تاريخه والتطلع إلى مستقبل مشرق والتأسيس للوعي بما للأزمة من فروق معرفية، إذا فالحوار مرهون دوما بمدى قدرتنا على التمدن والتحضر مع تقليص الهوية الحضارية و الزمانية بيننا، والشيء الملاحظ على الأمير أن ما يفعله هو ما يحتاجه الحاضر الآن، ولنا أن نقف ونتأمل ما جاء في الحوار الذي دار ما بين الأمير وأخيه مصطفى: "لقد سدت كل أبواب الخير في أوجهنا.. منذ مدة لم يدخلنا شيء... فيرد عليه الأمير: إلى هذا الحد ما قدرتش تصبر حتى نكمل الصلاة"²

¹ - الرواية ، ص 111 - 112

² - الرواية ، ص 77

ولعل فحوى هذا الحوار أن هناك تقابلا بين تصورين للزمن، وعي بأن الزمن يتحول ويتحول معه الوجود بأسره وهذا التصور يمتلكه مصطفى أخو الأمير، وتصور مقابل يرى الزمن في سيرورته وشروطه المتبدلة، وهذا يعني أن الأمير يعي زمنه الثقافي أو المعرفي، ولعل هذا الوعي هو الذي جعل الأمير يصرخ في وجه أبيه "يا أبي لا تجعلني أندم على إمارة لم أطلبها، وبدأنا ندرك أن الآخرين صنعوا أنفسهم من ضجيجنا الفارغ"¹

ونجد الأمير في موضع آخر يسعى إلى أن يحطم العالم القبلي من حوله، إلى شظايا ليقوم بلملمة جزئياته من جديد وترتيبه على نحو يتماشى والعصر، وهو يعرف أن أعداءه الجهل والقبيلة والخرافة: "كلما سمعت أن مجنونا احتل عقليات الناس أشعر بهول المسافة التي مازالت تفصلنا عن أعدائنا الذين تسترهم المصلحة والعقل... حجارة الصواب أهون لي من عقل متحجر يعوم في الخرافة"² ويقول أيضا: "قد نموت ويأتي من يخلفنا ولا يتغير الأمر، إلا قليلا هذا النمط متأصل في النفس كما يقول ابن خلدون ويحتاج للانتفاء إلى تدمير أسسه الأساسية، الطمع والجشع وغياب الاستقرار"³

فالملاحظ على أن الذات قد عجزت عن التعامل مع الآخر وأنه وعي صريح بضرورة امتلاك الأسلوب المتحضر الذي يفترض من خلاله احترام الآخر، ومما نلاحظه كذلك على أحداث الرواية أنها تقيم لنفسها فعلا دراميا ويتجسد من خلال الصراع الداخلي المعبر عن الأوضاع التاريخية، بالاعتماد على فعل التأمل من الحوار الداخلي لفكر الأمير المتمرد مرة وعلى سلسلة ردود أفعال الخارج مرة أخرى⁴، ولعل ما يعزز هذا الطرح نجد قول الأمير التالي: (إننا على حافة عالم في طريقه إلى الزوال وعالم يطل بخشونة برأسه، لا خيار لنا إلا أن نفهمه وننسجم مع ظروفه أو نظل نغني ولا أحد يسمع أصواتا إلا الذين نريهم

¹ -الرواية، ص 83

² -الرواية، ص 119

³ -الرواية، ص 99

⁴ - عبد الوهاب بوشليحة، استراتيجيا الكتابة التاريخية، ص 125

الهزائم انتصارات دائمة وأن الجهاد لا معنى له إذا لم يضمن حداً أدنى من غريزة البقاء، ليس للأفراد فقط ولكن للأرض والتراب، السيف بدأ ينسحب أمام البارود والمدفع اللومبردي والجياد، والخيول الأكثر أصالة أمام السيارات البخارية... مشكلة القبائل الأشراف أنها ماتزال تظن أن الانتصارات تأتي بقوة قادر" ¹

إذا الراوي يحاول هنا أن يعبر لنا عن طرح فلسفة الحرب انطلاقاً من تأصيل قبلي لا يزال مرادفاً لفكرنا السياسي، مكابد لأزمة عقلانية مؤسسة، والرواية لما استعانت بمرجعية التدهور الاستراتيجي في مفهومها للحرب لإعادة تكوين الواقع القبلي بعد تفكيكه ²

والشيء المؤكد أن شخصية الأمير عبد القادر لا تستمد الثقة الفردية بالذات من الداخل ولا من الأعماق، إنما تستقيها من الخارج، لأن الأمر يتعلق بتفسير ايدولوجي لوضع مجتمعه وهنا نجد نبرة الاحتجاج تسيطر على نشاطه الذهني في محاولة منه لمحاربة الفكر الخانع والقبلي السائد، بينما نجد في متن الرواية مقابلة ما بين الأنا والآخر، في أحد أقوال الأمير وهو يقول: "كل يوم يؤكد لي عندما كان الناس يعدون للحروب كنا نتغنى بمجد لم يعد له أي وجود" ³، ويقول في موضع آخر مخاطباً مصطفى بن التهامي: (العالم يا السي مصطفى تغير كثيراً، ونحن على حافة قرن كل شيء فيه تبدى على حقيقته.... لم نتوصل إلى اليوم إلى إقناع الناس أننا في حاجة إلى نسيان القبيلة والتفكير فيما هو أكبر، إذا أردنا أن نبني شيئاً... نظامنا مهوس من الداخل) ⁴

وتتواصل فكرة صراع الذات مع الواقع المزيف والكاذب، محاولة طمسه وإستشراق غد ومشرق، تزول وتضمحل معه كل بذور القبلية والعصبية، والالتحاق بركب الحضارة

¹ -الرواية، ص 196

² - عبد الوهاب بوشليحة، استراتيجية الكتابة التاريخية، ص 125

³ -الرواية، ص 111-112

⁴ -الرواية، ص 154

والتفوق، ويواصل الأمير في تحديه لهذا الواقع محاولاً تخطي عتبه وعيش الحاضر الغد، ويقول هنا: (كنا نعيش عصراً انسحب وانتهى، هل نملك القدرة اليوم لفتح أعيننا على هذه الحقائق وتعليم أبنائنا من أخطائنا القاتلة؟ من الصعب على انسان يأتي في مفترق عصر يذهب وآخر يجيء، أن يسير بشكل صحيح إذا لم يملك القدرة على فهم الاثنين معا في الوقت نفسه)¹

هذه مقابلة بين الذات والآخر، الآخر الذي يصنع التاريخ ويغير وجه العالم كيف يشاء ووقت ما يشاء، ونحن لسنا إلا ضجيجا متخلفا، والأمير من هذا المنظور حمل رغبة في التمرد والانقلاب على هذه الحياة، وكأن الأمير تحول من شخصية تاريخية إلى أخرى تحاول أن تتجاوز سياقها التاريخي المحدود، من أجل أن يحل في سياقات متعددة ومتفتحة على الحاضر المشرق، ومن هذا المنطلق كانت الرؤية التي طرحها الأمير، جعلت القس ديبوش يقرر إعادة النظر في فكره، خاصة فلسفة الأنوار في ممارساته السياسية، حيث لمح إلى عدم قدرة العقل السياسي على إنتاج الحقيقة المرجوة والمنشودة، وتؤكد أن الثورة الفرنسية حسبها، هي مجرد شعار زائف سقط في مأزق، حيث كان يدعي الحداثة غير أنه لم يصمد، وهنا حدث تطابق ما بين الوعي السابق وهذا الوعي الخاص بالآخر، ولعل من أمثله في الرواية مايلي: (الحرب أحيانا تعمي الأبصار، ياجون الحرب شر مهما كانت المبررات التي تتخفى من ورائها....) وأيضاً: (ماذا يمكن أن نفعل يا سيدي سوى مقاومة من هذه الحالة من العمى....)²

وكتعليق له عن تسليم الأمير لنفسه يقول: "الأمير سلم نفسه بشكل علني، ونحن مجبرون على احترام الاتفاقية"³

¹ - الرواية ،ص 520-521

² - الرواية ،ص 51

³ - الرواية ،ص 30-31

إذا سعت الرواية لأن تكشف لنا عن مأساوية وعي يسعى إلى تغييب الصراع، وتجاوز كل الأحقاد من أجل بناء علاقة لقاء والتقاء، ما بين الشرق والغرب، ما بين الإسلام والمسيحية، والمونسنير والأمير... الخ وكلها ثنائيات تحتم التلاقي فيما بينها.

ب/قيم التسامح والتعايش

الرواية التي بين أيدينا تعكس ولادة جديدة لعناصر اللقاء بين الشرق والغرب، وبرزت نماذج كثيرة في الرواية على شكل متكامل من أجل توحيد الرؤى والتكامل الوجودي، ففتش كل طمأنينة ما بين الأمير ومونسنيور فيناقشان القضايا التي تهم توحيد العالمين، في شبه حوار متكافئ يعود على الجميع بالخير العميم، والروائي يحاول جاهداً أن يعيد صياغة رؤية جديدة لحضارة الغرب، من أجل أن يبين بأن الهوة بين الشرق والغرب بدأت تضحل، ونجد ذلك عبر عينات ومشاهد وردت في النص، ولعل أول ما يبرز في هذا السياق ذلك الخطاب المتواجد في الصفحة السادسة من الرواية، حيث خصص خطاباً بالعربية لمونسنيور ديبوش حيث يقطع عهداً على نفسه بالدفاع عن الأمير وتبرئته من تهمة خطيرة ألصقت به زوراً وبهتاناً: "في انتظار القيام بما هو أهم، أعتقد أنه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة، في نصرته الحق اتجاه هذا الرجل، وتبرئته من تهمة خطيرة ألصقت به زوراً وربما التسريع وانقشاع الدكنة التي غلفت وجه الحقيقة مدة طويلة"¹

أما الخطاب الثاني فالأمير يبدي عزة نفس وشهامة، جعلته جديراً بالاحترام من قبل أعدائه فهو يقر أنه يفضل حريته على كنوز العالم:

"si tous les trésors du monde étaient déposés à mes pieds et s'il m'était donné de choisir entre eux et ma liberté. je choisirai la liberté"²

إذا تبادل كل من الأمير ومونسنيور اللغات ما بينهما جعلت الهوة تنقلص بينهما، فاستعمال لغة الآخر هي رغبة كامنة عند الشخصين في الانفتاح على الآخر والإنصات إليه بلغته

¹ - الرواية ، ص6

² - الرواية ، ص6

بغض النظر عن الاختلافات العرقية، فهذا التوجه الحضاري للكلمة ظاهرة تتصف بها أية كلمة بطبيعة الحال، وهو وضع طبيعي لكل كلمة حية، ذلك أن الكلمة في كل طرقها إلى الموضوع وفي توجهاتها إليه تلتقي بكلمة الآخر¹

فالمونسنير ديبوش والأمير عبر تبادلها اللغات، جعلاً الهوة تنقلص بين الثقافتين وكل منهما يسمع للآخر في غير لغته، وهذا الفعل أراد من خلاله الروائي إلى مد جسور التواصل ما بين الأنا والآخر، فالرواية تفتح على لغات وخطابات ورؤى، فاللغة لغتي بمقدار ما هي لغة الآخر، وهي تجسيد لكيونوتي وتجسيد مواز للآخر، أي لغتي التي هي لغته بالمقدار نفسه، ومن الامثلة الحاضرة هنا ما عانى منه المونسنير من شطط في منفاه بسان سباستيان في بلاد لا يعرف لغتها: (فالإنسان بدون لغة هو إنسان مقطوع اللسان أو هو شخص يسمع بأن الآخرين كما كان يكرر الأمير ذلك دائماً)²، ونجد الأمير من زاوية أخرى يعبر عن عدم قدرته على التواصل مع الآخرين في منفاه: (غادرت أراضي مدينة بورودو قطعت البداسوا bidaasso، لأصل بعد ذلك إلى سان سباستيان، تخيل بلدا لا تعرف لغته ولا عوائده؟ أليست كارثة؟ أعرف جيداً مونسنير شططك وقسوة التحول فجأة إلى إنسان أبكم)³

ولعل الوقفة التي تتطلب منا قليلاً من التخمين والتساؤل حول الجدوى من هذا التوافق، وإلى أي حد يمكن أن يصل هذا التوافق؟ والملاحظ على أنه صوت يمثل صلة ما بين عالمين، لا لشيء إلا لأنه محبوب من الطرف الثاني، وهو متفتح على العلوم وعلى حضارة الغرب، لأن الأمير لا يجد حرجاً في إعجابه بحضارة الآخر، وفيه رغبة في ضرورة التطور: (عظيم رأيت البارحة المدافع التي يتم بها نفس أعقد التحصينات، وأرى اليوم الآلة التي تم بها قلب

¹ - ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف الحلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط1988، ص33

² - الرواية، ص492

³ - الرواية، ص492

أقوى الملوك، ما يخرج منها يشبه قطرة الماء التي تنزل من السماء، إذا مست محارة تحولت إلى جوهرة وإذا مست لسان أفعى تحولت إلى سم)¹

إذا هذا الوعي الحضاري يدعو إلى الانفتاح على الآخر، ليس من باب التقليد الأعمى انم هو استعانة بكل مظاهر التقدم والتطور من أجل ضمان مكانة ضمن هذا العالم المتسارع، في إطار ما يسمى بالعمل والتعاون المشترك القائم، على أساس الاحترام المتبادل بين أقطار العالم وفق مصالح مشتركة تسهم في السلم العالمي، على أساس حضاري متين، وفي العمل الروائي نلمس هذا الانفتاح والتقدم على الآخر ونجد من أمثلته: (أرأيت قرار الجنرال لامورسير بعدم تعليمي الفرنسية، وتاريخ فرنسا كله لم يفدها كثيرا، لقد تعلمت الشيء الكثير، لا أحد يستطيع أن يحجب النور مهما أوتي من قوة)²

وكانت هناك رغبة ملحة على تعلم لغة الآخر من طرف الأنا، وطلب فعل الثقافة رغم رفض ومنع المؤسسة العسكرية هذا الأمر بتاتا، والأمير بطبعه ميال إلى الاقبال على الآخر والتفتح على لغة الآخر، وهنا وجب أن نتوقف ونتأمل من الغاية التي حاول الأمير أن يصل إليها من ثقافة الآخر، هل هي دعوة صريحة لتعلم لغة الآخر، والانفتاح عليه؟ أم هي عمل بما تقتضيه أصول ديننا الحنيف، خاصة ما ارتبط بمقولة -من تعلم لغة قوم أمن شرمهم- ؟

ولعل ما يزيل الغموض والالتباس أن الأمير نجده يصير على ثقافة الآخر لأنها حسبه تنير العقول وتفتح المجال واسعا على التقارب مع الآخرين، ومن منطلق وضع الخطط وتمنح الانسان حيزا واسعا من التعاطي مع الآخرين وهو حوار بين هذه العلوم، وتعلم الفرنسية حسب الأمير يتخذ شكل الاعجاب والفائدة وحب التخليد والاطلاع على ما لدى الغير أو الآخر " أنظر يالسي قدور، قال الأمير وهو يحاول أن يرفع رأسه عن أحد الكتب التي كانت بين يديه، قدماؤنا كانوا أفضل منا في التدبير العسكري خصوصا الفترة الأموية والأندلسية

¹ - الرواية ، ص 545

² - الرواية ، ص 454

سنشعر بقوة التنظيم الروماني في صفوفهم ونحن لم نصل بعد إلى اعتبار أن تقليدنا للجيش الفرنسي قوة، وليس تبعية وإيماننا بقوانا وليس كفرا، القبائل صارت عمياء، الجهل يا السي قدور أكثر خطرا من الأعداء الواضحين"¹

ويقال أن تبادل الأفكار ما بين الشعوب هي وسيلة للتعارف، وتقدير من الأنا للآخر والآخر للأنا، ومن أجل معرفته جيدا وجب أن تزول العداوة بينهما، لأن الجهل يولد العداوة، ومن أجل أن تزول العداوة يجب معرفة الآخر، ومن أهم ادوات التواصل الكتابة لما لها من دور كبير في تحقيق التواصل والتقارب ما بين الأنا والآخر، والشعوب بصفة عامة، وفي هذا السياق نجد الأمير يقول حول الموضوع: "الكتابة عنصر مهم في حياة الأمم فهي أشرف وأنفع من الإشارة واللفظ، لأن القلم وإن كان لا ينطق فإنه يسمع أهل المشرق والمغرب، فما جمعت العلوم ولا قيمت الحكمة، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا الكتابة ما استقام للناس من دين ولا دنيا"²

ومن الأمثلة الحاضرة والشاهدة بقوة في العمل الروائي نجد الحادثة التي أهدى فيها أوجين دوسيفري الأمير كتابا عن الجيش الفرنسي، وعلى وجهه بعض التردد وهو من تأليفه، والواضح أنها دعوة من الروائي لأجل الدعوة للحصول ومعرفة حقيقة الانفتاح على الآخر: "إذا قبل مني سيدي هذه الهدية المتواضعة سأكون ممنونا

أقبل بهذه الهدية لأن الاعجاب الذي أشعر به اليوم والصدقة الكبيرة منحاني فرصة اكتشاف عن قرب تاريخها الزاهر

كل الشرف لي شكرا سيدي"³

¹ - الرواية ،ص 145

² - الرواية ، ص 475-476

³ - الرواية ،ص 528

والملاحظ أن الأمير يعي جيدا أن الكتب هي تعامل ما بين الشعوب على أساس أنها موروثة حضاري استعماري، وهذه الكتب تساعد على التلاحق الحضاري والفكري ما بين الشرق والغرب، لأن الارث الدموي وما تخلفه الحروب من آلام وعذاب ليس بإمكانه وبمقدوره أن يحجب العلاقة والتلاقي ما بين الأنا والآخر، لأن الحياة الانسانية قائمة دوما وستظل كذلك قائمة على الوعي الجماعي والامتامي عبر التواصل البشري والانفتاح الفكري والتلاحق العقلي والعلمي، ولعل التوقع على الذات حتما يؤدي إلى التخلف عن أهم قواعد التاريخ التقدمي، لأن الاتصال بالآخر يولد أفكارا ورؤى وانتاجات....، ولأنه من دون معرفة الآخر لا يمكن للأنا أن يعرف نفسه ولا يستطيع أن يشكل صورة متكاملة عن نفسه، لأن كلاهما يحتاج إلى المشاركة الفاعلة من أجل رسم هذه الصورة النموذجية عن تقارب وتعايش الشعوب، ولا بد أن يوظف كل منهما معرفته لكي تسهل عليه عملية النيل من الآخر، وهذا التواصل هو بمثابة هدية توطد الأواصر الإنسانية وتعمقها، ومن الامثلة الموجودة في الرواية نجد نموذجا حول انتاج المعرفة: (هل نواصل قال بوسواني وهو يبحث عن قلمه - نواصل - تحدثنا في الباب الأول في العلم والجهل وعرفنا أن على العاقل أن ينظر في القول ولا ينظر إلى قائله، فإن كان القول حقا قبله سواء كان قائله معروفا بالحق أو الباطل، فالعاقل يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال، وذهبنا في تعريف العقل أنه منبع العلم وأساسه ومطلق قوة العقل هي احدى القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان يكون انسانا كاملا وهي قوة العقل وقوة الشجاعة وقوة العفة وقوة العدل... اندهش بواسوني من دقة الأمير ووضوح أفكاره الكثيرة)¹

هنا قيمة التقارب واضحة وجلية عبر رغبة كل من الأنا والآخر في اقامة التصالح مع الآخر، وهي رغبة مزدوجة من الطرفين، وهذه المقاربة تعدت الكتابة باللغة بل أصبحت بلغة قانون الشريعة، وهو منعرج حاسم شكل ثنائية انتاج المعرفة، وهو مشهد هن احدى أوجه

¹ - الرواية، ص 475

الاجتماع الانساني، وجعل القلم وسيلة فعالة في مؤسسة الكتابة والثقافة كمنتوج معرفي وفي السجن، حتى يتمكن كل من الأنا والآخر في التعرف على بعضهما البعض جيداً.

الأمير عبد القادر يؤمن بأن الحوار لا يؤول إلى طرق مسدودة، طبعاً إذا استند إلى شكل حضاري مبني على النشاط العقلي والمعنوي والروحي لأجل قيادة الإنسان إلى قيم الحق والعدل والحرية والرفاه، وهذا الحوار الحضاري يسعى إلى ايجاد الأواصر المتينة ما بين الشعوب، والعمل على جعلها تتعايش حضارياً في تكامل، ونجد مثلاً كلمة الحرية تتكرر عدة مرات في مواضع عدة من الرواية، عبر انتقاء مشاهد وحوارات وقضايا كبرى، التي تعد الأرضية الخصبة للإبداع والفضاء الرحب الواسع للاجتهاد والابتكار "كنا نتحدث عن أشياء كثيرة وعن الحرية التي لا شيء يضاهيها يا مونسنيور والشقوق التي يحدثها فقدان الأرض...."¹

والملاحظ على هذه الثنائية أن فيها اقبالاً واضحاً على الحياة وعلى التواصل رغم كل العراقيل والدروب الوعرة، إذ أن الأمير ومونسنيور هما مندفعان باتجاه الحرية والعدالة، والمحور الرئيسي هنا هو الحرية، بحيث جمعت تقريباً جميع حواراتهما، وأصبحت فيما بعد مقياساً لتلاقي أو تنافر الشعوب، وهما يبحثان عن معالم الحضارة الحقة التي تبني ولا تخرب وتجمع ولا تفرق، وتريد دوماً ترسيخ قيم التعاون والتفاهم، والرواية تحاول التأسيس لعلاقة إنسانية قوامها نشر المعرفة للجميع وضمان الرخاء لكل، فواسيني الأعرج من خلال هذه النماذج في الرواية يسعى لإبراز الحوار العقلي المتنور البعيد عن كل الحسابات والتأويلات التي من شأنها أن تعيق التواصل، والنموذج الثاني في الرواية يمثل تجربة النقاء ما بين الذات-الأنا-والآخر وكيف تتقاطع معه، وكيف يمكن بناء قاعدة صلبة لنمو وتطور

¹ - الرواية، ص 441

الأمم والشعوب، ونجد في الرواية: "مونسنيور كان يحب هذه الطقوس التي جاء بها من الجزائر، الثماني سنوات التي قضاها هناك صارت جزءا مهما من ذاكرته إن لم تكن كلها"¹

ولعل تمثل الأنا للآخر وتصوراتهما تسعى لتشكيل منتج مشترك وليس فرديا، من خلال العلاقة الموجودة بينهما، والمطلوب بين هاتين الذاتين، أن يكون هناك الفهم الكافي والاحترام المتبادل لكلا التقاليد الانسانية، والتي هي كفيلا بجني حصاد وكفاح الشعوب في التحرر والانسانية... الخ، ولعل هذا مانلمسه في هذا المشهد من الرواية:

نزع الأمير برنسه الأبيض الحريري الذي كان يرتديه، والذي طرزته أياد نسائية كثيرة من بينها أنامل لالا فاطمة في قصر أمبواز وأمضين وقتا كبيرا لنسجه... ثم وضعه على ظهر مونسنيور ديبوش.

هذا البرنس عزيز علي ولا أملك أثنى منه يستحق أن أهديه لك.

صداقتك تكفيني وأنا سعيد²

إذا الملاحظ بعد هذا العرض أن الهوية والفاصل ما بين العالمين بدأت بالزوال، وأن الانسان اقتنع بأن أي حضارة صحيحة وبدون استثناء هي ملك لجميع البشر دون استثناء، وأن الحوار الحضاري عليه أن يؤثر ويتأثر، ومن ثم يصبح حوارا ايجابيا، ومعه يكون التبادل المختلف للثقافات والتقاليد بأبعاد انسانية وغالية، ويحاول التغلغل إلى الأعماق لكي يزرع مثل هذه البذور الكفيلة بازالة الاختلاف القائم ما بين الشعوب، وجعلها كائنا كاملا يتحرك ويتقدم بسرعة، موحدًا الفكر والمشاعر الانسانية جمعاء.

¹ - الرواية، ص 89

² - الرواية، ص 537

3/ الحوار العقائدي في الرواية:

إن الحوار ما بين القس ديبوش-المسيحية- والأمير عبد القادر-الاسلام- كان في الكثير من الاحيان يميل لأن يكون خطابا عقائديا دينيا بحتا، وذلك من منطلق أن كل شخصية منهما سعت لإبداء رأيها بكل ما تعرف سواء أمور بسيطة أو عميقة، والروائي حاول جاهدا أن يجعل الحوار بينهما حول موضوع الدين، وهذا ما نستشفه من طيات الرواية وهو كلام الامير لمونسنيور: "بدأت أقرأ كتابكم الانجيل... هذه المرة أنا مصمم على قراءته كاملا وفهمه إن أمكن" وهذا لأن الأمير يركز على فطرية الدين وإمكانية الرجوع إلى الحق الذي يتميز به الوحي الصادق لكل الأمم، ومن الأمثلة الموجودة في الرواية نجد: (قل لمن تلقاه من النصرانيين والقديسين أن يدعوا لي)¹

هذه قراءة جديدة عند الأمير لمعتقد الآخر، تزيح اللثام عن زاوية نظر مغايرة: (لك كل المحبة التي تقربنا من بعض، حتى ولو اختلفنا لتستقر روحانا داخل نفس الحقيقة الالهية الكبيرة)

(لا أدري من أين جاءني كل هذا، ولكني أحبك أكثر مما يمكن أن تتصور، لك في قلبي مكانا واسعا وفي ديني متسع لا يفنى ولا يموت)²

كل من الامير و مونسنيور يحاولان البحث المشترك في ابراز الدين والعقيدة، والأمير مصمم على قراءة الانجيل كاملا وفهمه والاطلاع على المسيحية الحققة في صفاءها الأول، وهذا ما يبرز لنا رغبة الانفتاح من طرف الانا على معتقد الآخر، لأنه وبكل بساطة هذه المعتقدات الدينية تحمل كيفية التعامل وأسلوب الحوار ما بين الديانات، وربما ساهمت هذه العلاقة الوثيقة ما بين الأمير وديبوش في تصوير كل منهما نظرتة للآخر، لأنهما يؤثران في نفسية

¹ - الرواية، ص 44

² - الرواية، ص 44

بعضهما: (روحك أنت غالية علي ومستعد أن أمنح دمي لإنقاذها، امنحني من وقتك قليلا
لأتعرف دينك وإذا اقتنعت به سرت نحوه)¹

في هذا الشاهد نلمس استعدادا كبيرا من طرف الأمير ورغبة ملحة في الانفتاح على الآخر، والأمير له سعة صدر صوفية تسمح للآخرين بأن يعبروا عن أفكارهم وآرائهم حتى ولو لم تكن في موضع تسليم أو قبول، ولا يحاول فرض آراءه على الآخرين، ومفهوم التسامح عند الأمير ليس المقصود به الاستسلام للآخر بقدر ما هو ميل للحياة والطبيعة... ونجد الأمير يحاول أن يقدم لنا تفسيراً عن سبب اقباله على الآخر ومعتقداته الديني المسيحي، بحيث يريد أن يفهمه أولاً ثم يتفهمه، ويحاول أن يصوغ مبادئ الحوار والانفتاح على الآخر: (كلما تأملت هذا الرجل ازدادت محبة له ولأخلاقه... رجل محب لكل شيء يقرب الانسان من المحبة والله)²

فمحاولة فهم وتفهم الآخر ومعرفته جيداً تقود لنشر قيم المحبة للقس ديبوش حسب رأي الأمير، لأنه قبل أن يصل إلى درجة حبه، ومن خلال ماتم استخلاصه نلاحظ أنه كيان واحد يجتهد دوماً في محبة الآخرين وابقاء حب الآخرين له، واتحد حبهما في جو صوفي وتناغم خفي، وإذا كان هذا الحب مجبولا أو فطرة انسانية فإن الملاحظ من خلال أحداث الرواية أن الأمير توصل لحب المونسنيور ديبوش، وديبوش توصل لحب الأمير وهو حب نابع من ذاتهما وادراكهما لمعاني الحب الانساني، ومن أمثلته نجد سعي ديبوش وقد أضناه التعب في سبيل فك أسرار الأمير " وأنه ركض طولا وعرضا ليعطي الأمير وحاشيته مكانا يصلون فيه ويقيمون آذانهم في قصر أمبواز"³

¹ - الرواية، ص 52

² - الرواية، ص 218

³ - الرواية، ص 325

والسمة البارزة أن المونسنيور توصل لحب الأمير انطلاقاً من قيمة أفكاره السامية ونبل أخلاقه، فالمحبة هنا توصل إليها الرجلان رغم اختلاف معتقدهما وكان شعارهما -حب الخير فوق الأديان-، والشيء المتفق عليه والأكيد أن هذا التقارب الديني العقائدي يقرب الشعوب، وهناك أمور كثيرة يلتقي فيها الإسلام بالمسيحية ومن أمثلته: (ولكن هذا حرام في دينكم... مثل ما هو في ديننا... بدون شك الروح عند الله مقدسة ولا تؤخذ إلا بالحق)¹ والشيء المتفق عليه ما بين الأنا والآخر هو قدسية الروح وتحريم قتلها، والروائي هنا يسعى جاهداً إلى أن يلفت نظر الجميع رغم اختلاف الديانات أن هذا الأمر مشترك بين كل الأديان السماوية السمحة، من أجل خلق بوابة للتواصل والتفاهم.

والمعروف عن رجال الدين المسيحيين أنهم يسعون لخدمة دينهم وفق معتقداتهم، ويحاولون التصير بكل الوسائل من جاه أو مال ونفوذ، وإذا ما نجحوا اعتبروه نجاحاً باهراً، خاصة إذا ماتعلق الأمر برجل مسلم جعلوه يرتد عن دينه، مقابل متاع الدنيا الزائل لا محالة، فهل يسعى ديبوش إلى تنصير الأمير أم لا ؟ وإذا حاول كيف كانت ردة فعل الأمير؟ ونظرته لهذه الجرأة؟ وإذا مادققنا وأمعنا النظر جيداً في طيات الرواية نجد مايلي: (كنت أريده مسيحياً يخدم رسالة المسيح... ولكنه كان أقوى من أن يكون رجل دين واحد، فقد كان مسلماً في قلب كل المعارك الكبرى)²، ونجده في موضع آخر: (الأنانية أحياناً مؤذية في البداية تمنيته مسيحياً... ولكن مع الزمن تأكدت أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون إلا هو....)³ وربما هذا القول الذي سنذكره هو أشد وقعا وتأثيراً حيث يقول: (ازداد يقيناً أن الأمير جيد في مكانه وأن كليهما يخدم الله بطريقته، وربما بنفس الحماس والعزيمة)⁴

¹ - الرواية ،ص 467

² - الرواية ، ص 542

³ - الرواية ،ص 218

⁴ - الرواية ،ص 433

إذا محاولات القس ديبوش لم تفلح في تنصير الأمير، لأن الأمير حاول أن يبرر لديبوش أن الانفتاح على الآخر ليس بالضرورة اتباع دينه، إنما هو دعوة لتعميق فكرة الإيمان بغض النظر عن تفاصيل كل دين، وهو ما تأكد منه ديبوش بعد ذلك، وحاول أن يعمل جاهدة لتخليص الكنيسة من الظلمات إلى النور، وعرف أن مهمة رجل الدين هي توعية الناس وتعريفهم بدينهم وإرشادهم للصالح، وكل الحوارات التي دارت مابينهما جعلت المونسنيور ديبوش يعيد صياغة مفاهيمه لكثير من الأمور التي تخص الإنسان في حياته ، ومن بين القضايا التي استوقفتنا في هذه الرواية ماجرى مابين الأمير وامرأة حول تعدد الزوجات في الدين الاسلامي: (...أرى أن الزواج عندكم محكوم بفوضى كبيرة، أفصحي قليلا لم أفهمك جيدا فهناك من يتهمني بالانضباط الزائد في علاقاتي وزواجي... لماذا تتزوجون نساء كثيرات وليس واحدة مثلما نفعل في ثقافتنا... قولك في ثقافتنا يبين أن هناك عادات وتقاليد وثقافات وخصوصيات كل دين له ميزة المكان والقوم الذي نزل فيهم، ومونسنيور يتفق معي... لا توجد أديان خارج الناس الذين احتضنهم ورسخت أشواقهم وأفكارهم وحنينهم إلى الكمال... سيدتي الطيبة نقوم بعقلانية بما نقومون به سرىا، بين الرجل والمرأة سحر رباني خاص وجاذبية لا تقاوم، الإنسان قد يحب امرأة من عينيها، وأخرى من شفيتها... عندما نعثر على امرأة تحمل كل هذه الصفات سنكتفي بواحدة... الجمال خلقه الله للرجال والنساء.... ديننا ودينكم لم يعمل إلا على تهذيب العلاقات بدون اقصائها)¹

هذه مقارنة من الأمير من أجل توضيح فكرة الزواج الذي هو مقدس مابين الرجل والمرأة، وهناك عادات وتقاليد وثقافات وخصوصيات تميز كل شعب عن آخر، وتعدد الزوجات في الدين الاسلامي له مبررات حسب الأمير، وهذا كله سعي لتقريب المفهوم لدى الآخر واقناعه بمبادئ الدين الاسلامي الحنيف.

¹ - الرواية ،ص 442

والحوار مابين الأمير ومونسنيور ديبوش كان ينزع لأن يكون حوارا تأمليا وهو متعدد في الرواية ومن أمثلته نجد خطاب الأمير لديبوش بقوله: (حيث يسيل الدم بغير حق تسقط الشرعية)¹

ونجد قول ديبوش وهو يخاطب جون موبي: (تراجيديا الأمير ليست الهزيمة، وفي الهزيمة يمكن أن نقبل بقوة الآخر، ويكفيه فخرا أنه قاوم قرابة العشرين سنة ليس هذا هو المهم، التراجيديا هي عندما تستيقظ فجرا وتدرك فجأة أن الأرض التي نبت فيها ، ونبت فيها الذين تحبهم لم تعد قادرة على تحملك وأنت ستموت بعيدا عنها، وأن تربتها ستظل جائعة إليك وتظل أنت جائعا إليها)²

و كقراءة لهذين النموذجين نجد الأول يدل على قداسة الانسان، وحقه في الحياة وكل الأديان والشرعيات تثبت حقيقة ذلك، وعدم شرعية سفك الدماء وحرمتها باجماع كل الديانات السماوية المتوالية، وأن الحياة هدية ثمينة وكل الشرعيات باطلة إذا أجازت قتل النفس واسالة الدم وارقته، وفي الحوار مابين الأمير ومونسنيور تطرق لمشكلة كرامة البشر والانسان والمواقف مابينهما، أما النموذج الثاني فيلخص لنا معاناة مزدوجة لكل من الأمير والقس ديبوش ، فالأمير عبد القادر عانى من المنفى وآلامه، بعد نفيه من طرف السلطات الاستعمارية بعد القاء القبض عليه ،والمنفى كما قال عنه ديبوش هو اللامكان وهو مكان بدون وضع اعتباري **c'est l'etre sans statut** ،وهو كائن فقد أصله ومنبته وجذوره الأولى، واستماع ديبوش لآلام الأمير ومعاناة في سجن أمبواز، يصور لنا ما يحسه اتجاه أخيه الانسان، إذ بلغ بهذا المسمى بالمحبة العليا ولامس آلام الآخر، وهو ماتجلى لنا في علاقة الأنا والآخر، ومكانة كل منهما في قلب الآخر، وهي علاقة الانسان بالانسان وعلاقة الانسان بالكون.

¹ - الرواية، ص 541

² - الرواية ، ص 541

وهذا العمل الروائي استطاع أن يصور لنا بعض القواسم المشتركة ما بين الأنا -الأمير - الآخر -القس ديبوش- وأن لهما عوامل مشتركة، وكلاهما يواجه آلام البشرية، وحواراتهما تصنع تأملات في القضايا الانسانية التي تحفز على اللقاء والتبادل الفكري والثقافي، فرغم المسافة العقائدية والدينية بينهما إلا أن توحد الرؤى بينهما تطوي المسافة وتشكل نظرة للأشياء من زاويتها الانسانية الروحية: (لك كل المحبة التي تقربنا من بعضنا حتى ولو اختلفنا لتستقر روحانا داخل نفس الحقيقة الالهية الكبيرة)¹

(قرأت في قصصكم القديم أن مسافرا ذهب ليزور أحد أصدقائه المحزونين، التقى في طريقه ملاكا، سأله هذا الأخير إلى أين أنت ذاهب، فرد عليه الرجل وهو يسابق الملاك: سأزور صديقا في حاجة ماسة إلي، فرد الملاك: وماذا تنتظر منه، هل هو غني أو صاحب جاه وسلطان؟ فأجاب الرجل: لا هو في حاجة إلى مساعدتي وسأمنحه كل ما أملكه وأستطيعه من خير وود ومساعدة، فختم الملاك، واصل طريقك، فكل خطواتك ستحسب لك، وكل كلماتك ستلقى جزاءها....

أنت تعرف يا سيدي أنها درس رمزي، يقصد من وراءه التفاني في حب الآخرين، سعيد أن أسمع منك هذا الكلام منك...)²

إذا المحبة التي ينظر إليها الأمير ومونسنيور، تعني السلم والتسامح ونبذ العنف، وعدم السكوت عن الظلم، فالمحبة الصادقة تمنح الانسان الشجاعة ليقول الحقيقة ويواجه الطغيان، وجوهر حوارهما مبني على معاني المحبة والتآخي في ضوء المحبة الالهية، وابرار هذه القيم ونشرها يكون من أجل الحفاظ على كرامة الانسان، وتجلبت معه معاني الانسانية عند الأنا والآخر، في حمل كل الهموم والقيم المزدوجة والدفاع عنهما، وهذه الرواية تمهد لميلاد توحيد

¹ - الرواية ، ص 43

² - الرواية ، ص 43-44

رؤى ومواقف ربما تكون مستقبلا بين عالمين نقيضين، والهوة مازالت بينهما متسعة، لأجل أن يسود التضامن والمحبة بين كل ربوع المعمورة.

والشيء الملاحظ والمتفق عليه من مجمل هذه الدراسة أن بداية العلاقة مابين ديبوش والأمير كانت علاقة انبهار، حيث اعجب ديبوش بشخصية الأمير الى درجة أنه جعل هدفه اقناع الأمير بالمسيحية، ليقدم لدينه مكسبا كبيرا بهذا الشخص، لكن حواراته المتعددة مع الأمير، واقتراجه الكبير منه علمه أشياء كثيرة، فهذا الرجل الذي لم يضع سلاحه لأكثر من خمسة عشر عاما، لم تفارق الكتب يديه حتى في أحلك الظروف، وكان دائم القراءة والتفكير، وكان من أصدقائه المقربين ابن خلدون بمقدمته، والتوحيدي بالإشارات الالهية، وابن عربي بالفتوحات المكية، هذا الرجل الذي كان شديد التدين، عالما بدينه، كان يرى أن الدين انفتاح على الآخر وليس انغلاقا على الذات، كان يرى أن الايمان في حد ذاته كسب للانسانية في مجموعها، وهذا الدرس تعلمه ديبوش جيدا فجعله يفتح أفق تفكيره الى مداه، وجعل الحوار بينهما لا يهدف لكسب أحدها الى دين الآخر، بقدر ماهو تعميق لفكرة الايمان والتقارب بين المؤمنين بغض النظر عن التفاصيل التي تخص كل منهما ودينه، حيث يقول ديبوش لخادمه كنت أريده مسيحيا يخدم رسالة المسيح العالية، وكنت مستعدا أن أرحل بصحبته الى البابا لتعميده وتنصيره ليصير واحدا منا....ولكنه كان أقوى من أن يكون رجل دين واحد فقد كان مسلما في قلب كل المعارك الكبرى لمصلحة الانسان.¹

¹ -منير عتبة، قراءة في رواية كتاب الأمير وسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج، islam on line.net، أبريل 2007

خاتمة

ومما يستخلص في نهاية هذا البحث أننا استطعنا أن نجمل مجموعة من النقاط والنتائج المهمة ولعل أهمها وأبرزها :

1/ رواية كتاب الأمير للروائي واسيني الأعرج هو عمل مهم اعتمد فيه الراوي على المادة التاريخية وجعلها محور عمله الفني ، وهو ما أكسب الرواية مسحة جمالية ترجمها الروائي ببراعة جعلته عملا رائدا في الساحة الابداعية العربية.

2/ واسيني الأعرج استفاد من المادة التاريخية الموثقة ، وجعلها أرضية لانتاج خطاب مغاير ومختلف عن خطاب المؤرخ ، وحاول قراءة وقائع التاريخ بغية تقييم الحقائق.

3/ كان يهدف الروائي من خلال روايته كتاب الأمير لتصوير حوار الحضارات والتي هي قضية شكلت لسنوات طوال معضلة ما بين الأنا والآخر ، محاولا تجاوزها إلى أفق جديد مابين هذه الثنائية.

4/ يعد الحوار من أكثر وأهم وسائل التواصل والرقى مابين البشر، وواسيني الأعرج حاول أن يتعدى الحوار مابين الأفراد بعينهم، لأجل أن يصبح حوارا مابين الأمم، وهو حوار حضاري مابين الاسلام والمسيحية، مابين الشرق والغرب، وهو يقوم أساسا على أساس مهم وهو ادراك معنى الاختلاف وحق الآخر فيه ، ولابد من الاعتراف بالآخر لأنه ضرورة ملحة لأجل ارساء قيم التعارف والتعايش.

5/ الانفتاح والتعايش مع الآخر لابد أن يكون من منطلق أن يؤمن ويسلم بأن الآخر على قدر مساو في أهمية البناء الحضاري المشترك ، ولا يستقيم الأمر إلا إذا حدث توافق مابين الأنا والآخر في الرؤى والأفكار، ولا يجب أن ينظر الأنا إلى الآخر على أنه متخلف ومتأخر، بل يجب عليه اعتباره شريكا فاعلا في بناء العلاقات الانسانية ولا يستطيع الأنا أن يعيش بمفرده إلا من خلال احتكاكه بالآخر في معيشتة وواقعه الاجتماعي، وربطه دوما بالجانب الايجابي لا السلبي الذي لازم الانسان العربي لسنوات طوال.

6/ ينبغي عدم معاملة الأنا على أنها خير مطلق، والآخر على أنها شر مطلق ، انما يجب التعامل على أساس كيفية صياغة توأمة ما بين الأنا والآخر، تدعو الى التأمل والتفكير المشترك ما بينهما في أطر مناسبة لتحقيق التأثير الايجابي المتبادل.

7/ في هذا العمل الروائي محاولة من واسيني الأعرج الى اعادة كتابة التاريخ الجزائري في النصف الأول للقرن التاسع عشر، وتبيين حقائق خفية عن حياة الأمير عبد القادر التي طالها الغموض، محاولا الاجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالهوية على اعتبار أنه شخصية عانت الأمرين من الحروب العمياء.

8/ الرواية ارتكزت على شخصيتين هما الأمير عبد القادر والمونسنيور ديبوش ، وهما حسب هذه الدراسة رمزان للانسانية، و مثالا قيم التسامح والتعايش ، وتجاوزا تبعات الحروب وأحقادها وما خلفته من شرور ، وحاول الروائي تقريب مفهوم التقارب ما بين الشرق والغرب ، ما بين الاسلام والمسيحية، ما بين البشرية جمعاء ، مستشرفا بأن الهوة بدأت بالأفول وتزداد ضيقا وهذه نظرة ايجابية حسب الراوي.

9/ أشكال وصور الحوار الذي جمع ما بين الأنا والآخر تميزت بالتنوع والتعدد في عدة مجالات، وشمل مسائل مهمة تعلقت بالحضارة واللغة والعادات والتقاليد سواء شرقية أو غربية ، والثقافات والأديان ،وهو ما أضفى عليه صفة العمق في الطرح والتناول والنقاش ولعله بمثابة منطلق لفتح آفاق جديدة ما بين الغرب والعرب خاصة ، والعمل معا لتجاوز النظرة السلبية عن الآخر العربي المتخلف والهمجي ، وبناء ثنائية مشتركة جديدة قائمة على احترام الآخر وإعطائه قيمته الانسانية المستحقة.

10/ الملاحظة الهامة على هذا العمل الروائي أن صاحبه لم يعتمد على نسق خطي أفقي في ترتيب الاحداث ضمن متنه الروائي خاصة ما تعلق بضبط التواريخ ، والسمة الواضحة هي أن التواريخ مبعثرة ولا تلتزم الترتيب ، وهو ما أدى إلى ايجاد صعوبة بالغة في قراءة

الرواية قراءة متأنية وواعية ،والاعتماد على عامل الاستنكار كثيرا لأنك أحيانا تحس أنك تعيش في الزمن الحاضر ، لكن لا تلبث أن تعود الى الماضي ثم الى الحاضر ثم الماضي.....في نسق سردي متعمد من طرف الراوي .

11/ الملاحظة التي يجب أن لا تغيب عنا هي أسلوب واسيني الأعرج في هذا العمل
 الروائي الذي كسب ونال الاعجاب ، من حيث طريقة المعالجة ، وهي ميزة فنية نلمسها في طريقة الصياغة ،والقدرة على التأثير في نفسية القارئ والمتلقي ، من حيث محاولة الراوي احداث عملية اسقاط بارعة، وهذا بنقل الاحداث التاريخية ومحاولة معاشتها في الزمن الحاضر، بمعطيات جديدة ومعاصرة ، ويقال أن القارئ لبنية العمل العميقة والغير ظاهرة يجد أن هذا العمل هو تعبير عن الأحداث التي كانت تعيشها البلاد في شتى المجالات ، والتي هي مفروضة علينا ولا قدرة لنا نحن على تغييرها أو تعديلهاالخ ، وربما محاولة من الكاتب للتنبيه إلى قضية التحريف التي تمس دوما تاريخ الأمم خاصة أمتنا العربية.
 وفي الأخير نود التنويه إلى أن هذا العمل هو دراسة لرواية كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد من زاوية فنية ، وفق طريقة عمل موضوعية ، حاولنا أن نسلط فيها الضوء على شخصية فذة من الشخصيات التاريخية الجزائرية ، وهي شخصية الأمير عبد القادر الجزائري ، وأن ننقل جانبا من حياته بعيدا عن زخم المعارك والمقاومة ، وبالضبط في جوانب حياته ومواقفه الانسانية النبيلة ، في إطار تعامله وعلاقته مع الآخر المتعدد الصور وأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لكل ما يحب ويرضى وهو القادر عليه ، وأن يجعلنا ممن يقدمون النفع والفائدة للجميع إن شاء الله تعالى ، والله الموفق من أول ومن بعد .



قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ج1، دار الجيل ،لبنان ،دط،دت
- 2- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار لسان العرب، لبنان ، د ط 1988
- 3- أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر، قراءات نقدية في فكر طه حسين، دار عبد ربه مصر، ط1، 1997
- 4- الزهرة بلحاج، الغرب في فكر هشام شرابي، الفارابي ، لبنان ، دط 1998
- 5- القومي عبد العزيز، أسس الصحة النفسية، دار القلم، لبنان، ط1970، 8
- 6- بن سالم حميش، في معرفة الآخر، دار الحوار سوريا، ط2، 2003
- 7- جابر عصفور، المرايا المتجاوزة، (دراسة في نقد طه حسين)، دار قباء مصر، دط 1998
- 8- جعفر يايوش، الأدب الجزائري الجديد، التجربة والمآل مركز البحث في الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، 2007
- 9- حسن حنفي، هموم الفكر والوطن، الفكر العربي المعاصر، ج2، دار قباء، مصر، دط1998
- 10- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، المطبعة الفنية مصر 1990
- 11- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009
- 12- حميد عبد القادر الجزائري، جريدة النصر، الجزائر، ع1955، 2005
- 13- حميد لحمداني، بنية النص السردى بمنظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، 1993

14-رشيد رايس،صورة الجزائر والجزائري في الكتابات النثرية الفرنسية خلال القرن 19،

أطروحة دكتوراه دولة في الأدب المقارن،قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة

قسنطينة،2003/2004

15-سالم المعوش،صورة الغرب في الرواية العربية،الرحاب الحديثة،لبنان،دط،1998

16-سماح خالد زهران،كيف تفهم نفسك وتفهم الآخر؟ دار الفكر العربي،مصر،ط1،2004

17-صلاح صالح،سرد الآخر عبر اللغة السردية،المركز الثقافي العربي،الدار

البيضاء،المغرب،ط1،2003

18-عباس محمود عوض،علم النفس العام،دار المعرفة الجامعية،مصر،ط2،1999

19-عباس يوسف الحداد،الأنا في الشعر الصوفي،دار الحوار سوريا،ط1،2005

20-عبد السلام محمد الشاذلي،شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة،دار الحداثة

للطباعة والنشر والتوزيع،لبنان،بيروت،ط1،1995

21-عبد الرحمن بدوي،موسوعة الفلسفة،المؤسسة العربية،مصر1984

22-عبد الرحمن بدوي،دراسات في الفلسفة الوجودية،النهضة المصرية،ط2،1966

23-عبد الله ابراهيم،الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة،المركز الثقافي

العربي،المغرب،لبنان،ط1،1999

24-عبد المالك مرتاض،في نظرية الرواية،بحث في تقنيات السرد،المجلس الوطني للثقافة

والفنون والآداب،دط،1998

25-عبد المالك مرتاض،الاسلام والقضايا المعاصرة،دار هومة الجزائر،دط 2003

- 26- عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط 1986.
- 27- عبد الوهاب بوشليحة، استراتيجيا الكتابة التاريخية، رواية كتاب الأمير، مجلة دراسات جزائرية، ع3، 2006
- 28- علاء عبد الهادي، شعرية الهوية (نقض فكرة الأصل)، الأنا بوصفها أنا أخرى، مجلة عالم الفكر، الكويت، سبتمبر 2007
- 29- علي أبو ملح، في الأدب وفنونه، المطبعة العربية للطباعة والنشر، صيدا لبنان، دط
- 30- علي بن تميم، السرد والظاهرة الدرامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2003، 1
- 31- عمر حفيظ، كتاب الأمير لواسيني الأعرج، أسئلة الكتابة وأقنعة التاريخ، مجلة عمان، العدد 140، شباط 2007
- 32- لويس معلوف، المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق والمكتبة الشرقية، لبنان، ط1، 1991
- 33- محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 1997
- 34- محمد عابد الجابري، الغرب والاسلام، مجلة العربي، ع503، الكويت، 2000
- 35- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر، ط3
- 36- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1973
- 37- محمود رجب، المرأة والفلسفة، حوليات كاملة، ح3، جامعة الكويت، دط، 1981
- 38- مرشد أحمد، أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2003

39-مريم سليمان، علم نفس التعلم، دار النهضة المصرية، لبنان، ط1، 2003

40-مصطفى سويس، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار

المعارف، مصر، دط، 2004

41-ميخائيل ابراهيم أسعد، شخصيتي كيف أعرفها؟ دار الآفاق الجديدة، لبنان، ط3، 1987

42-نور الدين أفاية، المتخيل والتواصل (مفارقات العرب والغرب)، المنتخب

العربي، لبنان، دط، 1993

43-هيام شعبان، السرد الروائي في أعمال ابراهيم نصر الله، دار الكندي، دم، 2004

44-واسيني الأعرج، كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد (رواية)، منشورات الفضاء

الحر، الجزائر، ط1، نوفمبر 2004

المراجع الأجنبية المترجمة:

1-برتراند راسل، حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، ج1، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني

للثقافة والفنون، الكويت 1983

2-جامبل سارة، قاموس روتلج النقدي للنبوية وما بعدها، ترجمة أحمد الشامي، المجلس

الأعلى للثقافة، مصر 2002

3-جان بول سارتر، الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار العودة، لبنان، ط3

4-دافي ماري مادلين، معرفة الذات، نسيم نصر، منشورات عويدات، لبنان، فرنسا، دط 1983

5-سيجموند فرويد: الأنا والهو، ت محمد عثمان نجاتي، دار الشرق، مصر، ط4، 1982

6-كافين رايلي: الغرب والعالم، ت عبد الوهاب المسيري وهدى حجازي، سلسلة عالم المعرفة،

المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1986

7-مخائيل باخطين:الكلمة في الرواية،ت يوسف الحلاق،وزارة الثقافة،دمشق،ط1، 1988

8-ميشال فوكو:الانهمام بالذات،ت جورج أبو صالح،مركز الانتماء العربي،لبنان،دط،1992

9-ميشال فوكو:الكلمات والأشياء،ت مطاع الصفدي وآخرون،مركز الانتماء

القومي،لبنان،دط،1990

10-والاس د.لابين.برت.جريم:مفهوم الذات وأسس النظرية والتطبيقية،ت فوزي بهلول،

مكتبة الأنجلومصرية،مصر1979

11-يونغ.ك.ي:جدلية الأنا واللاوعي،ت نبيل محسن،دار الحوار سوريا،دط،1997

مواقع الانترنت :

-حوار مع الروائي واسيني الأعرج بعنوان: على الكاتب أن يدخل غمار تجربة شعبه ولا

يبقى على الهامش على الموقع الالكتروني:

http://www.el-moushahid.net/modules.php?name=sens_file_article:sid

174

-منير عتيبة،قراءة في رواية كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج

<http://www.islam-on-line.net>.avril 2007.

ملحق البحث

الملحق الأول : ترجمة للروائي واسيني الأعرج.

الملحق الثاني : ملخص الرواية .

التعريف بالروائي واسيني الأعرج :

واسيني الأعرج أديب وروائي جزائري ولد سنة 1954 بقرية بوجنان التابعة لولاية تلمسان ، درس في صغره بالجزائر ثم سافر بعدها إلى سوريا قبل أن يتجاوز سن الواحد والعشرين سنة، عرف من صغره ونعومة أظافره بحبه وميله لمطالعة النصوص القصصية الروائية والشعرية ، وقام بعدة محاولات أولية في سوريا ونشرت تحت رعاية وزارة الثقافة السورية مع نخبة من المؤلفين والكتاب من أمثال : هاني الراهب ، حنا مينا ، أحمد داود يوسف وغيرهم....

توجت دراسته في سوريا بنيله لشهادة الماجستير تحت اشراف الدكتور عبد الكريم الأشقر ، وبعدها تحصل على درجة الدكتوراه تحت اشراف الدكتور حسام الخطيب ، كانت لواسيني الأعرج مجموعات كثيرة ، حيث نشرت له نصوص ببيروت حيث خصصت له صحيفة - تشرين - صفحة ثقافية بعنوان بانوراما الثقافة الجزائرية، وكانت تصدر مرة واحدة كل أسبوع، عند وصوله سن الواحد والثلاثين سنة انتقل الى فرنسا حيث يشغل في جامعة السربون وجامعة الجزائر أستاذ كرسي ، وبعد واسيني الأعرج من أبرز ورواد الرواية في الوطن العربي .

أهم ابداعاته :

نظرا لتنوع وسعة اطلاع الروائي واهتمامه بالنقد فان هذا انعكس على انتاجاته التي وسمت بالتنوع ولعل من أهمها :

-مجموعة أعمال ابداعية جغرافيا الأجسام المحروقة سنة 1979 بمجلة آمال عدد 48

- رواية وقائع من أجيال رجل غامر صوب البحر سنة 1980¹

1 -جعفر يايوش ، الأدب الجزائري الجديد ، التجربة والمآل ،مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية

والثقافية، 2007، ص 237

- رواية وقع الأحذية الخشنة سنة 1981 ببيروت.

- ماتبقى من سيرة حمروش سنة 1982 بدمشق

- نوار اللوز سنة 1983 ببيروت.

- مصرع أحلام مريم الوديعه سنة 1984.

ولعل الشيء البارز هنا أن الكاتب استطاع أن ينفلت من دائرة التأسيس النظري الى الممارسة والتجربة الفنية من أجل تجسيد قناعاته الفكرية التي انطلق منها في بداية حياته العلمية الاكاديمية وهذه النصوص السابقة الذكر كتبها الروائي وهو يمارس عمله النقدي لأن الشيء الواضح والجلي أن هذه النصوص عالجت مواضيع : السجن والمنفى والاغتراب والتشرد والاغتيال...وهي نصوص احتجاجية وممارسة أدبية خلقت وثبة تائرة نحو المستقبل¹

لكن سنة 1990 أصدر رواية بعنوان **ضمير الغائب** بدمشق سجل بذلك بداية مرحلة جديدة ولدت مع هذا العمل التحفة ، وهو نص مشحون بالدلالات والرموز التي تنخر في تاريخ الجزائر وثقافته، ثم أصدر عمله الآخر تحت عنوان **الليلة السابعة بعد الألف سنة 1993**، ثم توالى الأعمال كنهز متدفق خاصة تلك التي تحمل الخطاب الأندلسي المقموع أو ذلك الحب الممنوع من أيام جنة الفردوس الأندلس المفقودة ، مثل **سيدة المقام سنة 1995**، **حارسة الظلال 1996** الصادرة بالفرنسية والصادرة سنة **1999 بالعربية** ، **ذاكرة الماء 1997 بألمانيا** ، **مرايا الضرير 1998 بالفرنسية بباريس**، **شرفات بحر الشمال ببيروت** ، وحسب النقاد والدارسين أنه من خلال هذه الأعمال سجل موقفا نقديا لاذعا من التاريخ الرسمي العربي الذي يقدم على أنه تاريخ مقدس يمثل زمن الملائكة على الأرض، فالرواية عنده عمل نقدي يدين التاريخ الرسمي برمته وينتصر للتاريخ

¹ - المرجع السابق ، ص 238

الذاتي الذي سلم من رقابة السلطة في لحظة هاربة من عمر الانسان، فهو يبحث في تاريخه عن نصه المميز، تحصل الروائي على عدة جوائز منها جائزة الرواية الجزائرية على أعماله عام 2001، وجائزة المکتبتين الكبرى على آخر أعماله الروائية كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد سنة 2006، كما تحصل على جائزة زايد للآداب سنة 2007، وترجمت أعماله الروائية الى عدة لغات أجنبية من بينها الألمانية - الإيطالية - السويدية - الدنماركية - العبرية - الإسبانية - الفرنسية.

*رواية كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد هي من أكثر الروايات التي عرفت رواجاً وجدلاً كبيراً وذلك نظراً لخروجها عن المألوف والسائد في الرواية العربية ، حيث سعى الكاتب الى استلهاً واستدعاء التاريخ للمادة التاريخية في عمله ، وهو ما يجعلنا نعتقد أنها تنتمي الى جنس الرواية التاريخية لأن نصها مبني ومرتكز أساساً على شخصية تاريخية هي شخصية الأمير عبد القادر ، في حياته وبطولاته وتضحياته ضد الاستعمار الفرنسي، كما أن الكاتب تطرق لظل خفي ومسكوت عنه لسنوات طوال وهو علاقة الأمير عبد القادر بالقس ديبوش.

ملخص الرواية :

استهل الكاتب روايته بجون موبى الذي تعهد بتنفيذ وصية المونسنيور ديبوش، وذلك بنقل رفاته ودفنه في أرض الجزائر، حيث كان ذلك عند خروج جون موبى يوم 1864/07/28 فجراً من ميناء الجزائر متنقلاً قارب الصيد المألطي الذي كان شغوفاً لسماع قصة مونسنيور ، كما وضع داخل القارب كيساً من الأتربة التي جلبها معه من بوردو والتي كانت جزءاً من الوصية ، إضافة الى ثلاثة أكاليل من الورود، ثم بدأ جون يسرد الحكاية للصيد مبتدئاً بتعيين مونسنيور كأول قس في الجزائر، واستمر في حديثه عن مونسنيور الى غاية تعرفه بالأمير الذي جمعت بينهما صداقة قوية، الى أن تنتقل بنا الرواية الى آخر مشاهدتها حول وعد مونسنيور بتحرير الأمير من المنفى في قصر أمبواز يوم 1848/01/17 وعندما سمع مونسنيور دقة الجرس الثالثة لملم الرسائل والأوراق التي سهر على ترتيبها واحدة تلو الأخرى، وخرج مسرعاً في وسط الأمطار الغزيرة رفقة سائقه في تلك الدروب متجهاً نحو قاعة المناقشات، وعند حدود الواحدة تم انعقاد مجلس المناقشات بباريس وفتح فيه ملف الأمير كأول ملف بعد محاولات مضنية استطاع مونسنيور بمساعدة دولا موري سير ، إضافة الى مساندة صاحب السمو الملكي حاكم الجزائر الدوق دومال ، وبعض نواب المجلس باقناعهم بفتح هذا الملف، وبذلك دارت المناقشات حول استسلام الأمير وعودهم له

وحول قتله للسجناء الفرنسيين وما تعلق بمصالح الدولة في العالم من جهة، والوفاء بالوعد الذي قطعه للأمير من جهة أخرى، حيث تراوحت آراءهم بين مؤيد ومعارض كما قام دولا موسير بشرح قضية الأمير وكيف تم القاء القبض عليه أمام الحاضرين في القاعة وبعدها رفعت الجلسة، ثم أحييت التدخلات للمناقشة السرية، بعدها تنتقل بنا الرواية الى مرور مونسنير للمرة الأخيرة على منزل لاتراس أين كان يقيم الأمير مؤقتاً، ومونسنير يحمل حقيبة مكدسة بالأوراق التي تحمل آلام الناس كما كان يسميها جون التي أخبره بها ، حيث يرى أنه لم يفعل شيئاً كثيراً في قضية الأمير سوى أنه فتح ملف الأمير على الأقل، وكان المونسنير ذاهباً باتجاه محطة القطار التي تفصل مابين مدينة باريس وأورليان، ثم المواصله الى مدينة بوردو وكان خادمه جون موبى يخفي خوفه وقلقه من عدم تحقيق المونسنير ما يصبو اليه ، لكن هذا الأمر سرعان ما نسيه بمجرد اقلاع القطار من المحطة، أما مونسنير بقيت في ذهنه بعض التفاصيل التي دارت في الجلسة الأخيرة، خاصة صورة المرأة التي جاءت راجية انقاذ حياة زوجها من قبضة الامير رفقة ابنتها الصغيرة، وهذا ماقام به بعد ذلك حيث وافق على طلبها وأرسل رسالة للأمير ،لكن الأمير عاتب مونسنير على طلبه اطلاق سجين واحد فقط، وهو الامر الذي نال اعجاب المونسنير ديبوش، ثم تعود بنا الرواية الى أحداث نوفمبر 1848 حين التقى المونسنير ديبوش بالكولونيل أوجين دوما وبالضبط في قصر هنري الرابع، حيث تناقشا سيرة الأمير قبل السجن وأثناءه، وعبر الاثنان عن اعجابهما بشخصيته، متجها بعد ذلك الى الدهليز الذي يوجد فيه الأمير وعائلته ،حيث استقبله الأمير بحفاوة كبيرة ودار بينهما حوار حول سماحة دين كل واحد منهما وهذا ما خلف أثراً كبيراً في نفسية القس ديبوش، وأن الأمير لا يختلف عن الناس الطيبين الذين عرفهم، وعند رجوعه للبيت راودته تساؤلات عدة حول الرجل الذي قضى معه خمسة أيام، ومرة أخرى تعود بنا الرواية الى الخلف وبالضبط الى سنة 1832 وهي كما يسميها الرواي عام الجراد والجفاف والموت...وكثر فيها الصراع والاقتيال مابين القبائل الاخوة لأتفه الأسباب، مثل ما فعل والد الأمير محي الدين بإقدامه على

اعدام قاضي أرزيو أحمد بن الطاهر، حيث انزعج من النهاية المأساوية لأستاذه، إضافة إلى الحوار الذي دار حول ضرورة اختيار سلطان جديد يخلف والده، واتفق الجميع على الأمير وتمت مبايعته من قبل القبائل، وهذا بعد الرؤية التي رآها سيدي الأعرج في نوفمبر 1832، وبعد البيعة عزم الأمير على التغيير والبداءة طبعاً كانت من بيته وعائلته وطالب بضرورة التقليل من مظاهر البذخ والترف، وفرض الضرائب على القبائل بغية شراء الأسلحة.... وعند الزيارة الثانية لمونسنيور للأمير وجده يكتب سيرته الذاتية متحدثاً فيها عن أسباب اخفاقه أمام الجيش الفرنسي، حيث صرح بعدم تكافؤ الفرص بينهما وهو ما جعله ينسحب للمغرب لإعادة تنظيم صفوفه، وفي سنة 1833 تم الاتفاق على عقد معاهدة دي ميشال وهي أول هدنة مابينهما، وفي 07 ماي 1833 تعرضت القبائل المساندة للأمير للهجوم من طرف جيش دي ميشال بغرض فك الحصار عن منطقة غرابة التي كانت أشد وفاء للأمير، وهو ماتصدى له الأمير سريعاً، وأعاد تقسيم جيوشه من جديد وبانتهاء فصل الشتاء اتجه إلى أعالي جبال زكار والمرايا وهذا من أجل إخضاع القبائل العاصية على دفع الضرائب لشراء أسلحة جديدة، وبالضبط في 22 أفريل دخل الأمير منتصراً وقدم له العديد من المساجين وكان أبرزهم أخوه سي مصطفى الذي رفض الأمير الصفح عنه إلا بعد صدور الأمرية التي عفت عن المساجين جميعاً، ولبت فيها عشرين يوماً حيث قام بوضع الأمور في نطاقها الصحيح ونصب إدارة جديدة.... ثم تعود الرواية إلى الزيارة التي قام بها المونسنيور ديبوش للمرة الثانية لتخفيف العزلة عنه، وللإجابة عن بعض الأسئلة التي بقيت عالقة في ذهنه، من بينها قضية النسخة الخفية وقضية الجنرال تريزيل الذي قام بحرق اتفاقية دي ميشال وتلقيه لخسائر فادحة أمام الأمير، ثم تعود إلى سنة 1835 التي دقت فيها طبول الحرب وذلك بعد إرسال ثلاثة سفن على رأسها كلوزيل الذي خلف ديرلون الذي تحول إلى وهران رفقة جيش كبير، والشيء الذي كان في مخيلة كلوزيل هو محو عاصمة الأمير معسكر، وعند سماع الأمير لهذا الخبر أمر سكان المدينة باخلاء المكان والذهاب إلى تكدامت، وبعدها قم بحرق المصانع والأراضي الزراعية،

ولما وصلت القوات الغازية لم تجد شيئاً.....ثم تعود الى احساس ديبوش بآلام في بطنه، لكن هذا الأمر لم يمنعه من زيارة الامير ومحاورته معه حول معركته مع بوجو في التافنة، وكان سعيدا لأنه حضي بمقابلة الأمير عن قرب رغم الخطر المحدق به، تنتقل بعد ذلك أحداث الرواية الى يوم استقبال جون موبي لرفاة مونسنير ديبوش في ميناء الجزائر، ورميه الأكاليل والأتربة في عرض البحر تنفيذاً لوصية مونسنير، ثم يصف الحالة المرضية التي مر بها في الأيام الأخيرة من حياته، وكيف أنه أصبح متقل الكاهل بقضايا الناس وتخلي مسؤولي الدولة عنه، وصولاً الى الحوار الذي دار بينهما في المخزن حيث أوصاه بتحقيق وصيته اضافة الى قضية الأمير والرسالة التي بعث بها الى نابليون واصفا له فيها انسانية ونبل الأمير وحقه في الحرية، تنتقل الرواية من جديد الى مدينة عين ماضي في 12 جانفي 1841، في ظل هذه الظروف اكتشف الأمير ضعف جيشه الشديد وأعاد ترتيبه من جديد، وفي شهر مارس أعلن الأمير الحرب ثم بعث برسالة الى الماريشال دوفالي تتضمن نهاية الاتفاقية وبداية الحرب، وبعد تعيين بيجو توماس حاكماً عاماً على الجزائر حيث خاض مع الأمير حرباً كانت غير متكافئة حيث استولى على تكدامت العاصمة الرمزية للأمير ودمرها كلياً،...وبعد الزيارة التي قام بها المونسنيور للأمير في سجنه بدأ بكتابة رسالة الى نابليون تحدث له فيها عن زمالة الأمير التي ضمت 33 دائرة وبسبعين ألف نسمة، و40 حارساً نظامياً مع بدايات العام 1843، إلا أن الآغا بن فرحات والدوق دومال تمكنا من مهاجمتها وقاما بكسر عمودها الفقري، وكل هذه الظروف جعلت الأمير يكتب الى سلطان المغرب يطلب النجدة وقام بارسال رسالة له مع خليفته سيدي مبارك بن علال الذي قتل فيها من بعد في معركة مع قوات الكولونيل لتراس، وهذه الحادثة شكلت فاجعة للأمير عبد القادر، وكان الوقت يمر بسرعة فائقة على المونسنيور ديبوش الذي لم يجد وقتاً للراحة لأنه يجب اكمال رسالته قبل تبشير فصل الربيع، وبعد الفشل من توقيع اتفاقية الحدود مع فرنسا قام بيجو بمهاجمة ولي العهد المغربي محمد الأمير، وحدثت مجزرة قام بها بليتي، حيث راح ضحيتها 760 ضحية في غار جبل الظهرة،

حدث انتكاسة للأمير ألزمته الفراش لأكثر من سبعة أيام.....، وفي هذه الزيارة التي قام بها مونسنيور رأى في عينيه حزنا وانهيارا بعد محاولة اغتياله من طرف العقون، وفي آخر معركة له مع فرنسا سلم نفسه للكولونيل مونطوبان، عندما ضاقت عليه السبل ، وبعد الظهر يركب الأمير مع حاشيته باتجاه المنفى.

وصل جون موبي والصيد المالطي الأميرالية وأكمل له في المقهى القصة حيث بدأ بدخول المونسنيور للصالون لرؤية الأمير كعادته وقد أطل الحديث معه في أمور كثيرة، وفي 25 ديسمبر ركب الأمير وحاشيته من المرسى الكبير الى طولون، وقد كان مع الأمير بواسوني، وبعدها اتجه الى قلعة لامالق من قصر هنري الرابع ، وبعدها جاء الكولونيل أوجين دوما لزيارته، لكن لم يشأ الاكثار معه في الحديث نظرا لوضعه المزري، وكان الأمير ينتظر بفارغ الصبر التطورات السياسية في فرنسا ، وحين علم باعتلاء شنقاونيه منصب الحكم عرف أن أمره ميؤوس منه، وبقي مع بوان سوني يناقش موضوعات كيرة كالعلم والجهل والثقافة والأدب، وبعد نقل الأمير الى قصر أمبواز ظلت تأتيه أخبار سيئة عن الوضع السياسي والانقلابات في فرنسا، وبعد زيارته الأخيرة للأمير بعد انقلاب 02 ديسمبر 1851، حيث وجد الأمير في حالة صعبة حيث أصبح لا يحتمل لا البرد ولا الألم، عندئذ عانقه ديبوش وابتسم الأمير وكاد ينسى ما به من ألم ،ولما اعتلى لويس نابليون بونابرت الحكم قام بزيارة الأمير وأبلغه بحريته عن طريق رسالة، وهكذا تحقق حلم مونسنيور ورأى الأمير حرا طليقا، وزاره في قصره قبل مغادرة فرنسا ودار بينهما حوار حافل بالمشاعر الحارة، وزارا أماكن عديدة منها متحف لوحة الاستيلاء على الزمالة، وأهداه الرئيس حصانا عربيا ، وهكذا اطلق سراحه، وأحس بالحرية التي سحبت منه، وأمطرت السماء فرحا، وبعدها توجه الأمير وحاشيته الى تركيا ونزل بفندق الأباطرة والتقى هناك ديبوش وأعطاه برنسه، بعد ذلك تعود الرواية الى الأميرالية حيث صورت لنا مشهد الناس وهم ينتظرون وصول رفاة القس ديبوش،

وكان من بين المنتظرين تلك المرأة التي طلبت من ديبوش أن يساعدها في عفو الأمير عن زوجها الأسير، وتقدم الحضور وفد كبير ممن احتل القس أنطوان ديبوش مكانة كبيرة في قلوبهم، تعبيرا عن امتنانهم وشكرهم له ، وهو حسبهم يستحق منهم هذه الوقفة في مثل هذا اليوم، وفي تلك اللحظة يكتفي جون موبي الرفيق الوحيد بلمسة للتأبوت متأملا صورة ديبوش رافعا رأسه .

فهرس الموضوعات

شكر وعران
مقدمة أ
الفصل الأول : ماهية الصورة ومفهوم الأنا والآخر
مفهوم الصورة 05
مفهوم الأنا والآخر 16
الفصل الثاني : شخصية الأنا والآخر في رواية كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد
أ/ الأنا القائد 27
ب/ الأنا شخصية كاريزمية 28
ج/ الأنا ومشروع دولة الزمالة 30
د/ الأنا المفكر والأديب 31
2/ الأنا وعلاقته بالآخر 34
3/ شخصية الآخر - المونسنيور دييوش - 36
الفصل الثالث : منظور العلاقة ما بين الأنا والآخر في الرواية
تجليات الأنا والآخر في رواية كتاب الأمير 49
1/ رفض فكرة الصراع 54

66.....	2/قيم التسامح والتعايش
73.....	3/الحوار العقائدي في الرواية
81.....	خاتمة
85.....	قائمة المصادر والمراجع
91.....	ملحق 01: التعريف بالروائي
94.....	ملحق 02: ملخص الرواية
101.....	فهرس الموضوعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص البحث

كتاب الأمير ومسالك أبواب الحديد، هي رواية تستحق كل العناية والاهتمام ،لأنها تلغي حافة التاريخ والمتخيل، وهي لا تقول التاريخ لأنه ليس هاجسها،ولا تنقل الأحداث والوقائع لاختبارها، وهي تستند على المادة التاريخية وتدفع بها لقول مالم يستطع التاريخ قوله، لأجل سماع أنين الناس وأفراحهم وأحزانهم، ورؤية حماس الأمير واندفاعاته في كثير من المواقف، إلى ملازمة مواقف القس مونسنير ديبوش وهو يدافع عن الأمير بكل ما أوتي من قوة الى غاية تحريره وإخراجه من السجن.

هذه الرواية هي درس في حوار الحضارات، حوار كبير ما بين الاسلام والمسيحية، ما بين رمزين إنسانيين هما الأمير عبد القادر والمونسنير ديبوش، اللذان حاولا أن يعيدا تشكيل الوعي ما بين الذات والآخر، والسمو به إلى درجة أكبر تسمح له برسم آفاق جديدة ورحبة في ظل تسامح وتعايش أخوي إنساني وراق ، وهذا طبعا ماتحبه وماتريده النفس البشرية جمعاء.

Livre prince et les chemins de fer des portes est une nouvelle valeur tous les soins et l'attention parce qu'il annule de l'histoire et le bord de l'imaginaire,qui ne dit pas le matériel historique payé pour dire l'histoire,à moins qu'il puisse dire afin d'entendre les andfaath dans de nombreuses situation,prendre contact avec les positions du révérend deboh tout en défendent le prince toutes ses forces jusqu'à la libération et le sortir de prison.

Ce roman est une leçon dans le dialogue des civilisations,un dialogue entre l'islam et le christianisme,entre les deux symboles humanistes sont l'emir abdelkader,et le révérend monseigneur deboh,qui a essayé de restaurer dans la formation de la conscience de soi et l'autre,et hh lui permet de dessiner une nouvelle et de larges perspectives,à la lumière de la tolérance et la coexistence d'un humaniste raffiné,ce qui est bien sur,ce que voulez toute la psyché humaine.

المصطلحات المفاتيح :

IMAGE=الصورة

L'AUTRE = الآخر

EGO =الأنا

RELATION =العلاقة

FORME = الشكل

D'IALOGUE = الحوار